من خصائص النظم القرآني في بيان صفات المؤمنين

في سورتي المؤمنون والمعارج

د. أحمد فريد أبو سالم
قسم الآداب والتربية – كلية المجتمع
جامعة الملك سعود

من خصائص النظم القرآني في بيان صفات المؤمنين في سورتي المؤمنون والمعارج

د. أحمد فريد أبو سالم
كلية المجتمع بجامعة الملك سعود
قسم الآداب والتربية

ملخص البحث:

من أهم الدوافع لدراسته هذا الموضوع، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وغيره، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم: "لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العَشْرْ". فجاءت الدراسة للتعرف على ما امتازت به تلك الآيات من لطائف بلاغية، وأسرار تعبيرية، ولمَّا كانت الآيات في سورة المعارج كبيرة الشبه إلى حد كبير بتلك الآيات الأولى من سورة المؤمنون اقتضت الدراسة تناولها أيضاً؛ حتى تكتمل الصورة التي يريد البيان القرآني إبرازها لهؤلاء المؤمنين، وقد جاء البحث في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهرس المصادر ومراجع البحث.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، وأتباعه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإن ساحة القرآن الكريم ساحة مفتوحة، وعطاءه بلا حدود، فألفاظه رحبة، ومعانيه ثرية، له في كل بيئة فكرية مدى غير محدود، وفي كل ميدان علمي علامات باهرات،إنه لو درس كل يوم، بل كل ساعة فإنه لا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه دارسوه؛ لأنه وحيٌ من الرحمن، من فتح له قلبه وجد فيه لذته الروحية، وسعادته الأبدية؛ حيث إنه أحد الأمور الثلاثة التي قيل عنها:" تفقدوا الحلاوة في ثلاث: في الصلاة، والقرآن، والدعاء، فإن وجدتموها فاحفظوا،واحمدوا الله على ذلك، وإن لم تجدوها فاعلموا أن أبواب الخير عليكم مغلقة"[1].

هذا، وإن للآيات الأولى من سورة المؤمنون، منزلة في القلوب عظيمة، ومكانة في النفوس جليلة، وحسبها شرفاً وفخراً ما ورد في شأنها من حديث الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ "لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العَشْرْ"[2]، هذا البيان النبوي كان له وقع السحر في القلب، وكان من أهم الدوافع وراء تشمير ساعد الجد، وتحفيز الهمة؛ لتناول تلك الآيات والاقتراب منها، والتعرف على ما امتازت به، من لطائف وأسرار، وكان للبلاغة القرآنية دور عظيم في إعلاء قدرها،وإبراز خصوصيتها التي بوأتها تلك المكانة العظيمة.

ولما كانت الآيات في سورة المعارج كبيرة الشبه إلى حد كبير بتلك الآيات الأولى من سورة المؤمنون اقتضت الدراسة تناولها أيضاً؛ حتى تكتمل الصورة التي يريد البيان القرآني إبرازها لهؤلاء الذين آثروا الدار الآجلة على الدار العاجلة؛ وللتعرف على ما بين الموضعين من اتفاق أو اختلاف أو انفراد، وأسباب ذلك؛ ومن ثَمَّ جاء هذا البحث وهو

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن ٥/ ٤٤٧، باب الطبع على القلب رقم(٧٢٢٦).

(٢) مسند الإمام أحمد١/ ٣٤ حديث رقم(٢٢٣)، وسنن الترمذي٥/ ٣٢٦ رقم(٣١٧٣)،والنسائي٦/ ٤١٢ رقم(١١٣٥٠).

بعنوان" من خصائص النظم القرآني في بيان صفات المؤمنين في سورتي: المؤمنون والمعارج".

هذا، وقد اقتضت طبيعة دراسة هذا الموضوع أن يأتي في: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، ثم فهرسين أحدهما: لأهم المراجع والمصادر، وآخر للموضوعات.

أما المقدمة: ففيها دوافع اختيار الموضوع، وكيفية معالجته.

وأما التمهيد: فتضمن الحديث عن الآيات محل الدراسة في السورتين، من حيث التعرف على السورة التي وردت فيها تلك الآيات، وأسباب نزولها، وبيان فضلها.

وأما المبحث الأول: فجاء بعنوان"التحليل البلاغي لآيات سورة المؤمنون".

وأما المبحث الثاني: فكان بعنوان" التحليل البلاغي لآيات سورة المعارج".

وأما المبحث الثالث: فكان بعنوان"من متشابه النظم بين آيات السورتين".

وأما الخاتمة: فجاءت رصداً لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وبعد، فهذه محاولة تحليلية لعطاء بعض آيات من الذكر الحكيم، وما هي إلا نفحات يقذف الله بعض مراده منها في قلب عبده المؤمن، فإن كنت قد وفقت في تحليلها وتناولها فذلك فضل من الله ونعمة، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني بذلت جهدي.

والله تعالى نسأل أن يفتح قلوبنا لفهم كتابه، وأن يعيننا على العمل بما جاء فيه، وأن يلهمنا الصواب والرشاد، والتوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

التمهيد:

الحديث عن الآيات محل الدراسة في السورتين، من حيث:

- المناسبة بين السور وما قبلها.

- سبب نزول الآيات.

- بيان فضلها.

أولاً: آيات سورة المؤمنون وما يتعلق بها

يقول الله تعالى عن أوصاف المؤمنين في أول سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

بين يدي سورة المؤمنون

قبل أن أتناول تلك الصفات بالتحليل والتعليق ينبغي أن أشير هنا إلى عدة أمور وهي:

أولاً: إن هذه الصفات ذكرت في سورة المؤمنون، وهي مكية باتفاق العلماء، وهي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة (الطور) وقبل سورة (الملك).

وأما آياتها فعند الجمهور مائة وسبع عشرة آية، وأما أهل الكوفة فعدوها مائة وثماني عشرة؛ وذلك لأن الجمهور جعل قوله تعالى: **﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** آية، أما أهل الكوفة فجعلوا قوله تعالى: **﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾** آية و **﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾** آية أخرى[2].

---

(١) الآيات الأولى من سورة: المؤمنون من الآية: ١-١١.

(٢) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي١/٧٣. ط: الثالثة: ١٤٠٥هـ. لكن السيوطي -رحمه الله- علق على هذا الترتيب لسور القرآن من ناحية النزول، والذي نقله عن جابر بن زيد وهو من علماء التابعين بالقرآن بقوله: وفي هذا الترتيب نظر، ومن ثم جاء ترتيبها عند صاحب" بصائر ذوي التمييز" مختلفاً عما=

أما ترتيبها في المصحف فتقع بعد سورة الحج، وقبل سورة النور، كما هو معلوم.

ثانياً:أسماء السورة:

هذه السورة يطلق عليها عدة أسماء:

١. سورة المؤمنون، كما هو ثابت في المصحف؛ وذلك على حكاية لفظ (المؤمنون) الواقع أولها في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فجعل ذلك اللفظ تعريفا للسورة.

٢. سورة المؤمنين؛ وذلك على اعتبار إضافة السورة إلى المؤمنين؛ لافتتاحها بالإخبار عنهم بأنهم أفلحوا، وقد وردت تسمية هذه السورة بـ"سورة المؤمنين" في السنة. روى أبو داود: عن عبد الله ابن السائب قال: "صلى بنا رسول الله الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر موسى وعيسى أخذت النبي سعلة، فحذف، فركع"[1].

٣. سورة قد أفلح، وهذه التسمية مما جرى على الألسنة، قال ابن القاسم: أخرج لنا مالك مصحفا لجده، فتحدثنا أنه كتبه على عهد عثمان بن عفان، وغاشيته من كسوة الكعبة فوجدنا.. إلى أن قال.. وفي قد أفلح كلها الثلاث لله، أي: خلافا لقراءة: سيقولون الله.

٤. سورة الفلاح؛ نظراً لتميزها بذكر صفات المفلحين والتصريح بها[2].

ثالثاً: المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها:

بالتأمل في الآيات التي في آخر سورة "الحج"وتلك الآيات التي افتتحت بها سورة "المؤمنون"، نجد بينهما ارتباطاً متيناً، والتحاماً قوياً؛وذلك لأن سورة الحج لما ختمت بنداء" ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأمرهم بأمور الدين خاصة وعامة، وختم بالصلاة والزكاة والعصمة به سبحانه موصوفاً بما ذكر، أوجب ذلك توقع الممدوحين كل خير، فابتدأت

=ذكره السيوطي، حيث جاء ترتيبها الرابعة والسبعون، ويسبقها"سورة الأنبياء"ويليها "سورة السجدة". (٣٣/١)

(١) سنن أبي داود باب الصلاة٢٣١/١ حديث رقم(٦٤٩).

(٢) راجع: هذه الأسماء في تفسير: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥/١٨..ط: الأولى ١٤٢٠هـ.

هذه بما يثمر الاعتصام به سبحانه في الصلاة وغيرها من خلال الدين في الدارين، فقال تعالى مفتتحاً هذه السورة بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: فصّل في افتتاحها ما أجمل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ [الحج: ٧٧]، وأعلم بما ينبغي للراكع والساجد التزامه من الخشوع، ولالتحام الكلامين أورد الأول: أمراً، والثاني: مدحاً وتعريفاً بما به كمال الحال، وكأنه لما أمر المؤمنين، وأطمع بالفلاح جزاءً لامتثاله، كان مظنة لسؤاله عن تفصيل ما أمر به من العبادة وفعل الخير الذي به يكمل فلاحه، فقيل له: المفلح من التزم كذا وكذا، وذكر سبعة أضرب من العبادة هي أصول لما وراءها، ومستتبعة سائر التكاليف، وقد بسط حكم كل عبادة منها، وما يتعلق بها في الكتاب والسنة؛ فصدر هذه السورة مفسر لما أجمل في الآيات قبلها، ولما كانت المحافظة على الصلاة منافرة إتيان المأثم جملة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [العنكبوت / ٤٥]، لذلك ختمت بها هذه العبادات بعد التنبيه على محل الصلاة من هذه العبادة بذكر الخشوع فيها أولاً، واتبعت هذه الضروب السبعة بذكر أطوار سبعة يتقلب فيها الإنسان قبل خروجه إلى الدنيا[2].

ويقول صاحب (أسرار ترتيب القرآن) عن وجه اتصال سورة المؤمنون بسورة الحج: "إنه لما ختمها بقوله ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وكان ذلك مجملا، فصّله في فاتحة هذه السورة، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[3].

إذاً المناسبة بين السورتين واضحة جلية فالمولى ـ عز وجل ـ عندما أشار إلى فلاح المؤمنين الذين استجابوا لندائه، فصلوا، وفعلوا الخير، ولكن ذلك الفلاح الموعود لم يكن على سبيل التأكيد،بل على سبيل الرجاء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ، جاء الإخبار عن حصول هذا الفلاح لهم ولكن هذه المرة على سبيل التأكيد بهذا الاستهلال الرائع الذي

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥ / ١٨٢. بيروت.ط: ١٤١٥هـ.

(٢) المرجع السابق: ٥ / ١٨٥ بتصرف يسير.

(٣) أسرار ترتيب القرآن للسيوطي ص١١٨، تحقيق /عبد القادر أحمد عطا، ط: الثانية: ١٣٩٨هـ.

يحمل بين طياته الحث والترغيب في تحصيل هذه الصفات التي تستوجب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

رابعاً:سبب نزول تلك الآيات:

روى الإمام أحمد في مسنده، والترمذي في سننه، والنسائي في سننه الكبرى: عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال:" كان إذا نزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الوحيُ يسمع عند وجهه كدَويّ النحل، فنزل عليه يوماً فمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: اللهم زدنا ولا تنقُصنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثِرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضِنا، ثم قال: لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العَشْر". وقال ابن العربي: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ هي العاشرة[1].

ويقول النحاس معنى" أقامهن" التي وردت في الحديث:"من أقام عليهن ولم يخالف ما فيهن، كما تقول: فلان يقوم بعمله"[2].

خامساً:فضل هذه الآيات:

إن هذه الآيات تعد ـ كما قرر البقاعي ـ "أجمع ما ذكر في وصف المؤمنين"،إذ إنها تحمل مكارم الأخلاق جميعها، كما أن أخلاق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حصرت في تلك الصفات الجليلة التي جسدتها وأبرزتها تلك الآيات، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فضلها، وعظم مكانتها "روى أبو عمران الجونى قال: قيل لعائشة ما كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: أتقرءون سورة المؤمنون ؟ قيل نعم. قالت: اقرءوا، فقرئ عليها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى بلغ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ فقالت: هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم"[3].

بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الآيات كما أنزلت على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد أنزلها الله عز وجل على سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وتكرار نزولها يدل ـ

---

(١) مسند الإمام أحمد١/ ٣٤ حديث رقم(٢٢٣)، وسنن الترمذي ٥/ ٣٢٦ رقم(٣١٧٣)، والنسائي٦/ ٤١٢ رقم(١١٣٥٠). وتفسير ابن كثير ٥/ ٤٥٩،والتحرير والتنوير١٨/ ١٨.

(٢) تفسير القرطبي١٢/ ١٠٣، تحقيق /سالم مصطفى البدري،ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) سنن النسائي حديث رقم(١١٣٥٠)، والقرطبي١٢/ ١٠٤، ونظم الدرر٦/ ٨٢.

بلا شك ـ على جلالة قدرها، وعظم شأنها. يقول السيوطي: " أخرج الحاكم، من طريق القاسم، عن أبي أمامة، قال: أنزل الله على إبراهيم مما أُنزل على محمد: ﴿التَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة/١١٢] و ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون/١ـ١١] و ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ ...﴾[الأحزاب/٣٥] الآية، والتي في سأل: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَآئِمُونَ﴾ [المعارج/٢٣.٣٣]، فلَم يفِ بهذه السهام إلا إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم"[1].

ثانياً: آيات سورة المعارج وما يتعلق بها

يقول الله تعالى عن أوصاف المؤمنين في سورة (المعارج): ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾[المعارج/١٩.٣٥].

حول سورة المعارج:

هذه الآيات ذكرت في سورة المعارج[2]،وهي من السور التي نزلت بمكة، وهي السورة التاسعة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت عقب سورة الحاقة، وقبل سورة النبأ، أما ترتيبها في المصحف العثماني ـ كما هو معلوم ـ فهي السورة السبعون، وتقع عقب سورة الحاقة أيضاً، وقبل سورة نوح عليه السلام، وعدد آياتها أربع وأربعون آية عند الجمهور، وعند بعضهم:ثلاث وأربعون.

سبب نزولها: عند الجمهور:أنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: **﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾** الآية[سورة الأنفال/٣٢]. وقال الربيع بن أنس: نزلت في أبي جهل بن هشام.وعند مقاتل: نزلت في

---

(١) الإتقان١/١١٣.

(٢) هذا الاسم هو الذي اشتهرت به هذه السورة، ولها اسمان آخران هما: "سأل والواقع".ولكن اسم المعارج هو أشهر تلك الأسماء وأخفها. ينظر: الإتقان١/١٥٩.

أمية بن خلف. وقيل: نزلت في جماعة من قريش، قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ الآية. وقيل: السائل نوح عليه السلام، سأل العذاب على الكافرين. وقيل: السائل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سأل الله" أن يشدد وطأته على مضر"[1] الحديث. فاستجاب الله دعوته.

أما عن **مناسبتها لسورة الحاقة** التي قبلها: فإن الله تعالى لما ذكر في آخرها قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة/ ٤٩]، أخبر في أولها عما صدر عن بعض المكذبين بعذاب الله، فقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. وإن كان السائل نوحاً عليه السلام، أو الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فناسب تكذيب المكذبين أن دعا عليهم رسولهم حتى يصابوا، فيعرفوا صدق ما جاءهم به[2].

وأما عن مناسبة الآيات التي معنا لما قبلها في السورة، فإن الآيات الأولى من السورة تحدثت عن يوم القيامة وما فيه من أهوال وعذاب، ثم كشفت لنا عن أحوال الكافرين، وقررت مصيرهم، فجاءت هذه الآيات لتوضح لنا أحوال المؤمنين وتقرر مآلهم، أي: إنها تذكر لنا أوصاف المؤمنين الحميدة، في مقابل أوصاف الكافرين الذميمة.

فضل هذه الآيات:

إن هذه الآيات ـ كما ذكرت آنفا ـ تعد من الآيات التي أنزلها الله عز وجل على سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أنزلها من قبل على سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهميتها، وعظم شأنها[3].

* * *

(١) سنن النسائي: باب القنوت في صلاة الصبح ٢/ ٢٠١ حديث رقم (١٠٧٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط ٨/ ٣٢٤ بتصرف يسير.

(٣) راجع: ما نقله السيوطي عن الحاكم في ذلك ص٧، عند الحديث عن فضل آيات سورة المؤمنون.

المبحث الأول

التحليل البلاغي لآيات سورة المؤمنون

الوقوف مع الآيات

الآية الأولى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

إذا تأملنا هذا الافتتاح الرائق، والبشارة العاجلة، فسنجد أنه استهل بالجزاء الذي يشرح الصدر، ويبهج النفس، ويثلج القلب، إنه استهلال بالفلاح الذي بشّر الله عز وجل به عباده المؤمنين،الذين استجابوا لدعوته وآمنوا به، والتزموا أوامره، وتجنبوا نواهيه، في كل زمان وفي أي مكان، إنهم السعداء الفائزون برضوان الله عز وجل ونعيمه المقيم، وفي هذه الجملة الابتدائية ما فيها من الحث والترغيب في تحصيل هذه الصفات التي تستوجب الفلاح والجزاء في الدنيا والآخرة مما لا يخفى، إن هذا الافتتاح الرائع هو الذي يسمى عند البلاغيين "براعة الاستهلال". وهو أن يكون مطلع الكلام دالاً على الغرض من غير تصريح بل بإشارة لطيفة[1] وإن جمال الابتداء بذكر الفلاح وحسنه، يكمن في أنه يجذب السامع إلى الإصغاء بكلّيته إلي متطلباته، وأن يتعرف على مآثر أهله وفضائلهم،لأنه أول ما يقرع سمعه، وبه يعرف النعيم الذي ينتظرهم. يقول ابن رشيق: إن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطيّة النجاح[2].

إنه إذاً افتتاح بديع من رب العالمين"لأنه من جوامع الكلم، فإن الفلاح غاية كل ساعٍ إلى عمله"[3]. كما علق على حسن هذا الاستهلال وجماله، فضيلة الشيخ الشعراوي . رحمه الله . بقوله:"إن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح في الآخرة، كأنه قدّم ثمرة الإيمان أولاً، ووضع الجزاء بداية بين يديك، كأنه سبحانه يقول لك:هذا جزاء من آمن بي واتبع منهجي"[4].

وإذا أنعمنا النظر في نظم هذه الآية فسنجد أنها صدرت بالحرف ﴿قَدْ﴾ ، ودخل على الفعل الماضي ﴿أَفْلَحَ﴾، وما ذلك إلا لإفادة تحقيق وتأكيد الإخبار بثبات الفلاح لتلك الفئة

---

(١) بغية الإيضاح / عبد المتعال الصعيدي ٤ /١٥١،ط: مكتبة الآداب . القاهرة.

(٢) يراجع: جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمي ص٣٤١ بتصرف، ط: دار الكتب العلمية . بيروت.

(٣) التحرير والتنوير١٨/ ٧.

(٤) تفسير الشعراوي١٨/ ٦١٢٧.

المؤمنة أصحاب الصفات المذكورة هنا.وكما هو معلوم أن الحرف(قد)" إذا دخل على الفعل الماضي أفاد التحقيق أي: التأكيد، فهو في الجملة الفعلية يفيد مفاد(إن ـ واللام) في الجملة الاسمية، أي: يفيد توكيداً قوياً"[1].

والسبب في هذا التأكيد هنا أن السياق سياق وعد،وسياق الوعد ـ عادة ـ يحتاج إلى تأكيد، ومن ثَمَّ وجدنا أن بين الحرف(قد) والوعد بالفلاح(أفلح) ارتباطاً قوياً، والتحاماً وثيقاً في البيان القرآني، اقرأ مثلاً قوله تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى/ ١٤]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس/ ٩]،وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه/ ٦٤]...إلخ.

والمؤمنون أكّد لهم هذا الخبر بهذين الأمرين (قد ـ والماضي) مع أنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك؛ لأن الذي يخبرهم بذلك هو الله عز وجل الذي لا يخلف الميعاد؛ وذلك لأنهم نظراً لترقبهم حصول الفوز بهذا الفلاح،ورغبتهم في تحقيقه نزلوا منزلة الشاكين في حصوله، فجاء التأكيد ليثبت هذا الفلاح والنجاح لهم، فالمؤمنون بلا شك" كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة، وهي الإخبار بثبات الفلاح لهم، فخوطبوا بما دلّ على ثبات ما توقعوه "[2].

و(قد)في دلالتها إذا كانت تنص على ثبوت الشيء المتوقع،فإنها بذلك تكون عكس (لمّا) التي تنفي حصول الشيء وتوقعه، تقول مثلاً: خرجت ولما أصل، فالوصول متوقع لكنّ لمّا تنفيه، وأنه لم يحدث بعدُ، وعلى ذلك يقول الله تعالى:في شأن الأعراب ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات/ ١٤]. فالإيمان متوقع أنه يصل إلى قلوبهم، ولكنه لم يصل إليها بعدُ.

كما نلحظ في اختيار﴿ قَدْ﴾ من بين أدوات التأكيد ليؤكد بها الماضي هنا، أنها بالإضافة إلى إفادتها للتأكيد، والتحقيق، فإنها تقرب الماضي من زمن الحال،تقول:"قام زيد"، فيحتمل الماضي القريب والماضي البعيد، فإن قلت:"قد قام زيد"، اختص ـ حينئذ ـ بالقريب فقط[3].ومن ثَمَّ فإن هذا يدل على أن الفلاح قد حصل لهم، وأنهم عليه في الحال، وهذا أبلغ من مجيء الفعل بدونها.

---

(١) التحرير والتنوير١٨/ ٨

(٢) الكشاف٣/ ١٧٧،والبحر المحيط٦/ ٣٦٥.

(٣)انظر:الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص٢٥٥، ٢٥٩، والإتقان٢/ ٢١٢، وفتح القديرللشوكاني٣/ ٤٧٣،واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي١٤/ ١٦٢، بيروت.ط: ١٤١٩هـ.

ثم انظر إلى التعبير هنا بكلمة ﴿أَفْلَحَ﴾ دون "فاز" مثلا، وذلك لأن "الفَلَح والفَلاح" معناه: البقاء، والظفر، وإدراك المُنْية، وهو ضربان: دينيّ، ودنيويّ، فالدنيوي: الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياةُ الدنيا، وهو: البقاء والغنى والعز. والأخروي: أربعة أشياء: بقاءٌ بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل، والفلح: الشق، وقيل: الحديد بالحديد يفلح:أي يشق، والفَلاَّح: الأكَّارُ، وإنما قيل له فَلاَّحٌ، لأنه يَفْلَحُ الأرضَ أي: يَشقها، ومعنى (حي على الفلاح) أي:أقبلوا على الظفر الذي جعله الله لنا بالصلاة،وأفلح: دخل في الفلاح، كأبشر:دخل في البشارة،ويقال: أفلحه:أصاره إلى الفلاح.

أما " الفوز" فمعناه: الظفر بالخير مع حصول السلامة، يقال: طوبى لمن فاز بالثواب، وفاز من العقاب: أي ظفِر ونجا، وهو بمفازة من العذاب: أي بمنجاة منه،وفاز بفائزة، أي: شيء يسير يصيب به الفوز[1].

وبالموازنة بين المادتين نجد أن "الفلاح" هنا يعد أبلغ من" الفوز"،لأنه يشتمل على الفوز وزيادة؛ إذ الفلاح فيه الظفر بالخير وإدراك البغية مع بذل الجهد والمشقة، فضلا عن البقاء في الخير وعدم تركه، ولهذا كان الجزاء الخلود في الجنة، يقول الأزهري: وإنما قيل لأهل الجنة" مُفْلِحون"؛ لفوزهم ببقاء الأَبَدِ، كما يؤكد ذلك أيضاً ما قاله ابن عباس . رضي الله عنهما . عند تفسيره للآية:"قد سعد المصدقون بالتوحيد، وبقوا في الجنة"[2].

فالتعبير إذاً جاء بـ﴿أَفْلَحَ﴾ ؛ ليدل على أن هؤلاء المؤمنين بذلوا كل ما في وسعهم في إتقان هذه الأعمال الصالحة، وأدوها على خير وجه، وأن المؤمنين كلما تعبوا في العبادة واجتهدوا، زاد ثوابهم وتضاعف جزاؤهم في الآخرة، ومن ثَمَّ كانت ثمرة هذا التعب، وتلك الأعمال المتقنة، الفلاح العظيم، والثواب الجزيل.

ثم انظر إلى النظم القرآني هنا تجده لم يحدد المتعلق بفعل الفلاح وإنما أطلقه ولم يقيده، وذلك" يقتضي في المقام الخطابي تعميم ما به الفلاح المطلوب،وللإشارة إلى أنهم أفلحوا فلاحاً كاملاً، وكأنه قيل: قد أفلح المؤمنون في كل ما رغبوا فيه"[3].

---

(١) المفردات في غريب القرآن٢/ ٣٠٩، ٢/ ٣١٦، وانظر: بصائر ذوي التمييز٢/ ٣٧٨، ٢/ ٣٨٠، والكشاف٣/ ١٧٧، ولسان العرب: مادتي "فلح . وفوز".

(٢) راجع: اللباب١٤/ ١٦٦،واللسان مادة(فلح).

(٣) التحرير والتنوير١٨/ ٧.

ثم انظر ـ أيها القارئ الكريم ـ أيضاً إلى كيفية إثبات الله عز وجل الفلاح لهؤلاء المؤمنين المتصفين بهذه الأوصاف الجليلة، وتقريره لهم في هذه السورة مرتين، مرة بطريق التصريح عندما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ومرة أخرى بطريق التعريض؛ وذلك عندما نفى الفلاح عن الكافرين في آخر السورة فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون/١١٧]، ومعلوم أنه إذا نفاه عن الكافرين فقد أثبته ـ بطريق مفهوم المخالفة ـ للمؤمنين وأوجبه لهم، فضلاً منه ونعمة، بموجب الوعد الكريم.

ثم تأمل بعد ذلك في التعبير عن هؤلاء الذين اتصفوا بتلك الصفات العظيمة، إذ عبّر عنهم بوصف الإيمان ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فلمِ اختار البيان القرآني هذا الوصف، ولم يقل مثلا:(المسلمون، أو المحسنون، أو المصلون)؟ثم لماذا جعل هذا الوصف اسماً على زنة اسم الفاعل؟

لاشك أن وراء ذلك سراً، إن لم يكن أسراراً ولطائف كثيرة، منها: أن هذا الوصف هو الذي يتناغم مع المقام والسياق، فسياق السورة التي قبلها، ناداهم الله عز وجل فيها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج/٧٧]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: فإن اختيار وصف الإيمان؛ لأنه عام يشمل جميع الخلال المذكورة وغيرها، و"للإشارة إلى أنه السبب الأعظم في الفلاح، وأنه وصفٌ جامع للكمال، وأن جميع الكمالات تتفرع عنه"[1]. ومن ثَمَّ كان الارتباط والتلاحم قوياً بين الفلاح والإيمان.

ثم من ناحية ثالثة: نجد أن التعبير عنهم بالمؤمنين يعد أرقى وصفٍ لهم، حتى إنه سمى السورة باسمهم، ثم رتّب على هذا الترقي في وصفهم بالإيمان، أن جعل ثوابهم أيضاً في أرقى المنازل، إنهم الوارثون الذين لا يرثون أي مكان في الجنة، إنما يرثون الفردوس، ولا يرثونه فترة مؤقتة ثم يغادرونه، إنما ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾،أي: هم في الفردوس، أو هم في الجنة مخلدون، فهم في نعيم دائم لا ينقطع أبداً.

ثم جاء التعبير باسم الفاعل ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، الذي يحمل بين طياته الدلالة على الثبوت والدوام،إيماءً إلى أنهم فعلوا ما أمرهم الله به، واستمروا عليه، فحققوا صفة الإيمان، بحيث أصبحت صفة ثابتة لهم على سبيل الدوام.

---

(١) المرجع السابق ١٨/٨.

كما أن التعبير بالاسم فيه"إشارة إلى أن من أقر بالإيمان، وعمل بما أمر به في آخر السورة التي قبلها، وما أتى بعد ذلك من أوصاف، استحق الوصف الثابت؛ لأنه اتقى وأنفق مما رزق، وأخلص فيما أمر به فأفلح.﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

الآية الثانية: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾

في هذه الآية نلحظ أن البيان القرآني، استهل بها الإخبار عن سبب فلاح المؤمنين، وبيان علة فوزهم بالفردوس الأعلى، فذكر لذلك ست صفات: بدأها بالحديث عن أهم عبادة بعد الإيمان وهي: الصلاة، وقبل أن أتوقف لتحليل تلك الآية، ينبغي أن أشير هنا إلى أربعة أمور:

الأول: أن هذه الصفات ـ والله أعلم ـ تعد تفصيلاً للأعمال الصالحة التي ورد الحديث عنها مجملاً في سورة الكهف، خاصة أنها سابقة في النزول على سورة المؤمنون، فترتيبها التاسعة والستون، أما المؤمنون ـ كما سبق أن ذكرت ـ فترتيبها الرابعة والسبعون، ففي سورة الكهف يقول الله تعالى:في شأن أصحاب الفردوس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[الكهف/١٠٧، ١٠٨]، إنهم استحقوا هذه المنزلة بسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، ثم جاءت سورة (المؤمنون) لتفصل الحديث عن مضمون هذه الأعمال الصالحة لهؤلاء المؤمنين، والتي كانت سببا في استحقاقهم هذا النعيم المقيم.

الثاني والثالث: أن الإمام الرازي ـ رحمه الله ـ جعل الصفات المستحقة للفلاح سبعاً، وأنه لابد من اجتماعها حتى يتحقق الفلاح، ثم جعل الصفة الأولي: الإيمان فقال:"اعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعاً لصفات سبع...الصفة الأولى: قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ،الصفة الثانية: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ (٢)، واقتفى أثره في ذلك شمس الدين الشربيني في تفسيره (السراج المنير)(٣).

والظاهر أن الإيمان ليس صفة؛ لأنه يعد الأساس الذي تبنى عليه جميع الصفات المذكورة وغيرها، فلولاه ما كان هناك قيمة لباقي الصفات، ففي أحضانه تنشأ تلك

---

(١) نظم الدرر٥/١٨٢، والآية من سورة: الحشر/٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي٢٣/٦٧، ط:دار الكتب العلمية. بيروت.ط: الأولى ط: ١٤٢١هـ.

(٣) السراج المنير٢/٦٦٥، ط: دار الكتب العلمية. بيروت.

الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة، وتنبثق من خلاله تلك الثمار اليانعة، ولعله أراد الوصف المعنوي وليس الوصف الإعرابي؛ إذ لم أقف على رأي لأحد من العلماء ذكر أن ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هي الصفة الأولى لهؤلاء المفلحين؛ لأن كل صفة إعرابية لا بد لها من موصوف، فـ "اسم الموصول ٱلَّذِينَ هو مبني في محل رفع نعت ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ، وجملة ﴿هُمْ... خَٰشِعُونَ﴾ لا محل لها من الإعراب صلة الموصول، والجار والمجرور ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ متعلق بالخبر ﴿خَٰشِعُونَ﴾ ، والموصولات الخمسة الأخرى ﴿ وَٱلَّذِينَ﴾ معطوفة على الموصول الأول[1].

والحاصل: أنّ الإمام الرازي أراد بالإيمان الوصف المعنوي، فجعله صفة أولى،كأنه يريد أن ينبه من أول الأمر إلى وجوب استجماع صفة الإيمان أولاً، حتى يكون لباقي الأوصاف قيمة ونفع؛إذ إنّ كل أعمال الخير لا تُجدي إن فُقِد الأساس الأول. هذا هو الأمر الثاني.

أما الأمر الثالث: وهو قوله: إنه لا بد من اجتماع هذه الخصال حتى يتحقق الفلاح، فأقول: إن البيان القرآني قد بدأ كل خصلة من تلك الخصال الست باسم الموصول مسبوقاً بحرف العطف الواو(والذين)، وهذا معناه أن المراد اجتماع هذه الصفات، ولكن البيان القرآني آثر تكرار اسم الموصول والعطف مع كل صفة؛ وذلك لأن اسم الموصول يعرّف بصلته، وهذا يدل على أنهم طبقة مميزة معروفة في جميع الصفات المذكورة، بالإضافة إلى ذلك فإن فيه إشارة إلى استقلالهم في كل صفة على حدة، وأنهم كاملون فيها، بدليل ذكر العطف الذي يشعر بالاستقلالية أيضاً، وهذا يعني كمالهم وتميزهم في كل صفة، وفي هذا دلالة على أن كل صفة على حدة مستوجبة للفلاح، وليس مجموع الصفات، قال صاحب التحرير والتنوير: مبيناً العلة في إجراء الصفات على (المؤمنون) بطريق الموصول،وبتكريره:"للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلته، أي أن كل خصلة من هذه الخصال هي من أسباب فلاحهم، وهذا يقتضي أن كل خصلة من هذه الخصال سببٌ للفلاح؛ لأنه لم يقصد أن سبب فلاحهم مجموع الخصال المعدودة هنا. فإن الفلاح لا يتم إلا بخصال أخرى مما هو مرجع التقوى، ولكن لما كانت كل خصلة من هذه الخصال تنبئ

---

(١) ينظر:الجدول في إعراب القرآن وصرفه/ محمود صافي مجلد٩/ ج/١٨/١٥٠ـ بيروت.ط: الأولى:١٤٠٦هـ، وإعراب القرآن الكريم أ/ عبد الله علوان،أ/خالد الخولي٣/١٥٠١ ط:مصر. ط: ٢٠٠٤م.

عن رسوخ الإيمان من صاحبها اعتبرت لذلك سبباً للفلاح، كما كانت أضدادها كذلك في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر/٤٢-٤٦]، على أن ذكر عدة أشياء لا يقتضي الاقتصار عليها في الغرض المذكور... وإعادة اسم الموصول دون الاكتفاء بعطف صلة على صلة؛ للإشارة إلى أن كل صفة من الصفات موجبة للفلاح، فلا يتوهم أنهم لا يفلحون حتى يجمعوا بين مضامين الصفات كلها"[1].

الرابع: أن الصفات التي ذكرها البيان القرآني للمؤمنين هنا جعل على رأسها الخشوع في الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، فما السر في ذلك؟ ولِمَ قيّد الخشوع هنا بكونه في الصلاة؟.

قبل الإجابة عن هذا التساؤل ينبغي لنا أن نتعرف على دلالة مادة الخشوع أولاً، فنقول: إن مادة الخشوع تعنى: السكون والتذلّل والضراعة والسكوت، يقال: خَشَعَ يَخْشَعُ خُشوعاً واخْتَشَعَ وتَخَشَّعَ: رمى ببصره نحو الأرض وغَضَّه وخفَضَ صوته، وقيل الخُشوع: قريب من الخُضوع، إلا أنّ الخُضوع في البدن وهو: الإقْرار بالاستِخْذاء، والخُشوعَ في البدَن والصوْت والبصر كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾[2] أي: سكنت، وكلُّ ساكنٍ خاضع خاشعٌ، وقيل الخشوع: أكثر ما يُستعمل فيما يوجد في الجوارح، والضَّراعة: أكثر ما يُستعمل فيما يوجد في القلب. ورُوي: إذا ضَرَع القلب خشعت الجوارح، والتخشُّعُ لله: الإخْباتُ والتذلُّلُ، والخشوع: التذلل مع خوف، وسكون للجوارح، وقيل: الخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع[3].

إذاً معنى الخشوع: هو استشعار عظمة الله وجلاله، وهذا بدوره يوصل إلى درجة الخوف منه وخشيته سبحانه وتعالى، وهذه الحالة لا تقتصر على الصلاة وحدها، وإنما يجب أن تلازم العبد المؤمن في جميع أحواله، سواء كان في الصلاة أم في غيرها، ومن ثَمَّ جاء التصريح بهذه الصفة على جهة العموم دون تقييد لها في سورة الأحزاب، وجعلها الحق تبارك وتعالى من صفات الذين أعد لهم المغفرة والأجر العظيم في

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٨، ٩.

(٢) سورة طه: من الآية/ ١٠٨.

(٣) ينظر: لسان العرب مادة (خشع)، وبصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٤٥، وتفسير القرطبي ١/ ٢٥٤.

الآخرة، فقال: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ... أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا﴾ [الأحزاب / ٣٥]، كما جاء النص عليها في سورة الأنبياء في وصف نبي الله زكريا ـ عليه السلام ـ وأهله، فقال: ﴿... وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء / ٩٠]، لكن الخشوع يتأكد لدى المؤمن إذا كان في الصلاة؛ "لأن الصلاة أولى الحالات بإثارة الخشوع وقوته؛... ولأنه بالصلاة أعلق، فإن الصلاة خشوع لله تعالى وخضوع له، ولأن الخشوع لما كان لله تعالى كان أولى الأحوال به حال الصلاة؛ لأن المصلي يناجي ربه، فيشعر نفسه أنه بين يدي ربه فيخشع له، وهذا من آداب المعاملة مع الخالق تعالى"[١].

كما أن الخشوع وإن كان محله القلب، فإن العبد إذا كان في الصلاة خاصة فإنه ينبغي عليه أن يجمع فيها بين الأمرين: بين خشوع القلب وخشوع الجوارح، وخشوع الجوارح يكون بـ" سكونها وترك الالتفات، وغض البصر، وخفض الجناح، وخشوع القلب يكون: بخضوعه وخشيته وتذلّله، وإعظام مقام الرب، وإخلاص المقال، واليقين التام، وجمع الهمة لها، والإعراض عما سواها"[٢].

ومما يؤكد أن خشوع الجوارح تابع لخشوع القلب، ما أخرجه الترمذي: عن أبي هريرة: عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ "أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته ـ وهو في صلاته، فقال: لو خشع قلب هذا؛ لخشعت جوارحه"[٣].

إذاً فالمؤمن الذي يخشع في صلاته:" لا بد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود، ومن التروك: أن لا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سوى التعظيم، ومما يتعلق بالجوارح: أن يكون ساكناً مطرقاً ناظراً إلى موضع سجوده، ومن التروك: أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، ولكن الخشوع الذي يُرى على الإنسان ليس إلا ما يتعلق بالجوارح فإن ما يتعلق بالقلب لا يُرى"[٤].

بعد هذا الإيضاح لمعنى الخشوع، وسرّ تقيده بالصلاة، أنتقل إلى الإجابة عن التساؤل الذي طرحته آنفاً وهو: لِمَ جعل البيان القرآني الخشوع في الصلاة على رأس الصفات التي ذكرها للمؤمنين هنا؟.

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٩.
(٢) الكشاف ٣/ ١٧٨، وانظر: البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٨٥.
(٤) تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ٦٨، وانظر: تفسير الخازن ٧/ ٣١.

أقول: إن الحق تبارك وتعالى أراد أن يبين لنا أهمية صفة الخشوع في حق هؤلاء المؤمنين وتحليهم بها، وأنها ملازمة لهم في كل أحوالهم، وخاصة إذا كانوا في الصلاة؛ لأن الصلاة تستوجب الخشوع فيها، لأنه روح الصلاة، و"صلاة بلا خشوع - كما قيل - جسد بلا روح"[١]. إن العبد إذا أيقن بأن ربه ينظر إليه، وأنه مطلع على تفاصيل ما في قلبه وجوارحه، فإن ذلك يؤدى إلى خوفه من ربه، وهذا مما يوجب" خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشدّ استحضاراً له كان أشدّ خشوعاً. وإنما يفارق القلبَ الخشوعُ إذا غفل عن اطّلاع الله تعالى ونظره إليه".[٢]

وإذا كان التنويه بشأن الخشوع من أسرار تقديمه، فإلى جانب ذلك أن الله عز وجل أراد أن يثني على هؤلاء المفلحين في هذه الآية بوصفين اثنين، لا بوصف واحد، وهما: أداؤهم للصلاة، والخشوع له سبحانه وتعالى فيها.

كما أن البدء بالخشوع له دلالة أخرى، وهو أنه قد ورد في بعض الآثار:"أن الخشوع أول ما يرفع من الناس،ففي خبر رواه الحاكم وصححه أن عبادة بن الصامت قال:"يوشك أن تدخل المسجد، فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً"،وأخرج ابن أبي شيبة، وأحمد في الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال:"أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخرُ ما تفقدون من دينكم الصلاة، وتنتقض عُري الإسلام عروة عروة".فبدأ بما يُرفع أولاً وهو: الخشوع، وختم بما يُرفع آخراً وهو: الصلاة، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾[٣]. لهذه الأمور وغيرها قُدِّم هذا الوصف على باقي الأوصاف.

ثم نلحظ أيضاً أن بقية أوصاف المؤمنين قد ورد ذكرها بين فريضة الصلاة في أول الصفات وفي آخرها، فهل هناك علاقة بين هذه الصفة الأم التي هي الصلاة، وبين تلك الصفات الأخرى التي ذكرت بينها؟.

وللإجابة عن هذا أقول: إن ذكر صفات هؤلاء الذين استحقوا الفلاح والنجاح، وورودها كلها بين فريضة الصلاة - التي هي أم الفضائل، وأم العبادات - في البداية ﴿ ٱلَّذِينَ

(١) تفسير روح المعاني١٨/١٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز٢/٣٤٥.

(٣) المرجع السابق مجلد٥ /١٨ /٤، وانظر:لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د/فاضل السامرائي ص١٣١،ط:دار عمار. عمان. الأردن ط: الثالثة ط:١٤٢٣هـ.٢٠٠٣م.

﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، وفي النهاية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فختمت الصفات بالصلاة، كما بدأت بالصلاة يشعر أن الصلاة تولدت منها وبينها كل الصفات المذكورة، إن الانطلاق إلى التحلي بتلك الصفات ينبع من أداء حق الله أولاً في الصلاة، إن هذا الانطلاق من الصلاة كأنه يومئ إلى أنه لا فرق بين حقوق العباد وحقوق الله، وأن المحافظة على حقوق العباد تتولد من المحافظة على حقوق الله، وأن من لم يراع حقوق الله لا يراعي حقوق العباد، ومن لم يراع حقوق العباد لا يراعي حقوق الله.

وإذا كان هناك في الظاهر استقلالية بين تلك الصفات، فإن هناك في الحقيقة وجه ارتباط قوي، وعلاقة وثيقة بين تلك الصفات عموماً، وبينها وبين الصفة الأم وهي الصلاة على وجه الخصوص؛ لأن المحافظة على تلك الحقوق مرتبط ارتباطاً شديداً بالمحافظة على الصلاة،ولا يفهم من قول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ استقلالية تلك الصفات[1]، بأنه ليس بينها ارتباط؛ لأنها كلها محصورة في داخل الصلاة ولبها.

إن فريضة الصلاة تعد مصدراً للخيرات كلها، وأساساً للفضائل جميعها،ولما كان شأنها عظيماً، وفضلها كبيراً،ـ إذ عن طريقها يقترب العبد من ربه،ويشعر بالراحة والطمأنينة ـ فرضها الله عز وجل على جميع الأمم، يقول الإمام القشيري:"إن الله تعالى لم يُخل زماناً من شرع، ولم يُخل شرعاً من صلاة"[2]

إن البيان القرآني في هذه الآية الكريمة يريد أن يسجل لهؤلاء المؤمنين الحالة التي يكونون عليها، وهم يؤدون صلاتهم، فوصفهم بأنهم فيها: "متذللون لله، بإدامة ما ألزمهم من فرضه وعبادته، وإذا تذلل لله فيها العبد رُؤيت ذلة خضوعه في سكون أطرافه، وشغله بفرضه، وتركه ما أُمر بتركه فيها".[3]

وإذا أنعمنا النظر في نظم هذه الآية فإننا نجده قد تعاون في إبراز هذا المعنى تعاوناً بيّناً واضحاً،فمن ذلك ما نراه أنه صُدّر باسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ ، وفي ذلك إشارة إلى زيادة تقرير الغرض الذي اشتملت عليه جملة الصلة في ذهن السامع، وأن ما جاء في حيز صلتها يُعد صفة من صفات المدح والتخصيص الكاشفة لهؤلاء المؤمنين.

---

(١) راجع: التحرير والتنوير: ١٨/٨.

(٢) تفسير القرطبي١/١١٩.

(٣) تفسير الطبري١٩/٦٩٦.

ثم تأمل قوله: ﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ تجد أن جملة الصلة هنا وفي جميع تلك الأوصاف الآتية قد صدرت بالضمير "هم"، والسبب في ذلك؛"ليؤذن بتحقيق حصول تلك الصفات لهم"[1]، كما نلحظ أيضاً في نظم هذه الأوصاف أن متعلق الخبر فيها وهو" الجار والمجرور" جاء مقدماً عليه ﴿فِي صَلَاتِهِمْ ۝ عَنِ اللَّغْوِ ۝۝ لِلزَّكَوٰةِ ۝ لِفُرُوجِهِمْ ۝ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ ۝عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ﴾ ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى العناية والاهتمام بشأن هذه الأمور.

كما أن تقديم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ﴾ على﴿ خَاشِعُونَ﴾ ،فيه تنويه بشرف هذه الفريضة،وبيان فضلها،وليلحق الصلاة التي هي حظ البدن، بالإيمان الذي هو حظ القلب، ثم جاء بعدهما بالزكاة التي هي حظ المال، وجاء التقديم أيضاً للمحافظة على الفاصلة(الواو- والنون، أو الياء - والنون)، ومن ثم فقد حقق التقديم هنا فائدة لفظية إلى جانب الفائدة المعنوية، والفائدة اللفظية تعد" جزءاً من التعبير كالمعنى تماماً؛ حيث إن الحفاظ على التنغيم الآخذ، والتوازن الصوتي، يشارك مشاركة فعالة في تحريك القلوب، وبعث خوافي الإحساس والشعور، ويدرك هذه الحقيقة من ذاق حلاوة الترتيل، وجمال التنغيم في هذا القول الحكيم"[2].

ثم تأمل الإضافة في قوله ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ ،تجد أن الصلاة أضيفت لهؤلاء المؤمنين، كرامة وتشريفاً لهم، وبياناً لفضلهم،كما أن الإضافة هنا تعني:التخصيص اللغوي، وهي تستوجب قمة المحافظة عليها والخشوع فيها؛لأنها صلاة العبد نفسه، ونفعها يعود عليه وحده، يقول الزمخشري:" فإن قلت: لم أضيفت الصلاة إليهم ؟ قلت: لأنّ الصلاة دائرة بين المصلِّي والمصلَّى له، فالمصلِّي هو: المنتفع بها وحده، وهي عدّته وذخيرته فهي صلاته. وأمّا المصلَّى له: فغنيّ متعال عن الحاجة إليها والانتفاع بها"[3]

ثم انظر أخيراً في ختام نظم هذه الآية فستجد قوله: ﴿خَاشِعُونَ﴾ ،وإذا دققنا النظر فيه فسنجد أن البيان القرآني آثر هذا الوصف، ولم يقل مثلا: (قائمون،أو مؤدون)،كما

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن /الزملكاني ص٢٠٦.ط: الأولى: ١٣٩٤هـ.

(٢) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص٢٥٠، القاهرة. ط:الثانية: ١٤٠٠هـ.

(٣) الكشاف ٣/ ١٧٩،وانظر: البحر المحيط ٦/ ٣٦٦.

جاء التعبير به على صيغة الاسم ولم يأت به على صيغة الفعل فلم يقل:(يخشعون)، كما جاء به أيضاً مُنَكَّراً، فهل هناك أسرار أو لطائف وراء ذلك؟.

أقول: إن النظم القرآني حين آثر الوصف بـ ﴿خَٰشِعُونَ﴾ على غيره،فإنه بذلك يشير إلى أن إقامة المؤمنين للصلاة أو المحافظة أو المداومة عليها أمر مفروغ منه،ولكن المطلوب المدح والثناء بما هو أعمق من ذلك، وهو ماذا بعد الإقامة والأداء لهذه الفريضة، وهذا هو الأهم؟! إنه الخشوع، فجاء التعبير به دون غيره.

ثم جاء التعبير به بالصيغة الاسمية دون الفعلية؛ للدلالة على الرسوخ والثبات والدوام على هذه الصفات، وليكون هناك اتحاد وتماثل بين هذا التعبير وما جاء قبله في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وما جاء بعد ذلك من أوصاف:﴿مُعْرِضُونَ﴾ ﴿فَٰعِلُونَ﴾... إلخ، فبالإضافة إلى ما تفيده هذه الصيغ من رسوخ قدم هذه الفئة المؤمنة في تلك الصفات، فإن مجيئها على نسق واحد يعد ميزة من المزايا البلاغية التي تتكاثر ولا تتزاحم.

أما مجيئها نكرة ﴿خَٰشِعُونَ﴾، فلإفادة العموم والشمول، يقول صاحب البرهان الكاشف:"ونكر ﴿خَٰشِعُونَ﴾؛ ليعم كل من فعل ذلك، وكذلك في باقي الصفات"[1].

وفي ختام الحديث عن هذه الآية، وقبل تركها ينبغي التنبيه إلى أن الله عز وجل إذا كان قد أثنى على المؤمنين بخشوعهم في الصلاة فإنه ليس محموداً على إطلاقه،وإنما منه المذموم كما أنَّ منه المحمود، أما المحمود من الخشوع فهو: الذي يكون من أثره خشوع كل شعرة على جسد العبد؛ لقول الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[الزمر/٢٣]؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر، فلا يملك صاحبه دفعه، فتراه مطرقاً متأدّباً متذللاً، وقد كان السلف ـ رحمهم الله ـ يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك، وأما الخشوع المذموم فهو: التكلف والتباكي وطأطأة الرأس كما يفعله الجهَّال ليُرَوا بعين البر والإجلال، وذلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان.روى الحسن أنّ رجلاً تنفّس عند عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كأنه يتحازن، فلكزه عمر، أو قال لكمه. وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ إذا تكلم أسمع، وإذا مشي أسرع، وإذا ضرب أوجع، وكان ـ مع ذلك ـ ناسكاً صدقاً، وخاشعاً حقاً.وعن أبي بكر الصديق ﷺ

(١) البرهان الكاشف ص٢٠٦.

قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:"تعوَّذوا بالله من خشوع النفاق، قالوا يا رسول الله: وما خشوع النفاق؟قال: خشوع البدن، ونفاق القلب". وروى أحمد عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: استعيذوا بالله من خشوع النفاق، قيل له: وما خشوع النفاق؟قال: أن ترى الجسد خاشعاً، والقلب ليس بخاشع"[1].

وأخيراً أشير هنا إلى أنني أطلت الوقوف أمام نظم الصفة الأولى هذه، لأن كثيراً مما ذكرته فيها ينطبق على نظم باقي الصفات.

الآية الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾

بعد وصف الله عز وجل المؤمنين بالخشوع في الصلاة، وصفهم بالإعراض عن اللغو، والسر الظاهر وراء ذلك هو ما ذكره الزمخشري، وتبعه فيه كثير من المفسرين وهو: أن الله تعالى" لما وصفهم بالخشوع في الصلاة، أتبعه الوصف بالإعراض عن اللغو، ليجمع لهم الفعل والترك الشاقَيْن على الأنفس اللَّذَيْن هما قاعدتا بناء التكليف"[2].والفخر الرازي أضاف لهذا السبب سبباً آخر وهو: أن الإعراض عن اللغو يعد"من متممات الصلاة"[3]، أما صاحب نظم الدرر فقد أشار إلى وجود علاقة قوية بين هذه الصفة والتي قبلها تكمن في أنه:" لما كان كل من الصلاة والخشوع صاداً عن اللغو، أتبعه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾، فصاروا جامعين بين فعل ما يعني، وترك ما لا يعني"[4].

إن وجه الارتباط الذي ذكره علماؤنا الأجلاء ـ رحمهم الله ـ هنا منظور فيه إلى العلاقة بين هذه الصفة والتي قبلها،وهذا توجيه جيّد، لكنه يلفت إلى تعلق جزئي، وهو ما يكون بين هذه الأوصاف بعضها وبعض من علاقات وارتباطات يأخذ بعضها بحجز بعض؛ للكشف عن الأمور التي كانت وراء ترشيح هؤلاء المؤمنين ليكونوا أهلاً لميراث الفردوس الأعلى.

---

(١) القرطبي١/ ٣٧٥،وانظر:الدر المنثور٦ / ٨٤.

(٢) الكشاف٣ / ١٧٩، وانظر: البحر المحيط٦ / ٣٦٦، وغرائب القرآن للنيسابوري٥ / ١٠٩، واللباب في علوم الكتاب١٤/ ١٦٨،والمقصود بالفعل والترك عنده، أن الفعل هو: الخشوع في الصلاة، أما الترك: فهو الإعراض عن اللغو.

(٣) تفسير الفخر الرازي٢٣/ ٧٠.

(٤) نظم الدرر٥ / ١٨٣.

ولكن إذا نظرنا إلى سياق السورة كلها فإننا نلحظ أن هذه الصفة جاءت في مدح المؤمنين لتعرّض بموقف الكفار من الرسل ـ عليهم الصلاة وأزكى السلام ـ بدءاً من سيدنا نوح ـ عليه السلام، وانتهاءً بسيدنا عيسى ـ عليه السلام[1]. إنها تعرّض بموقف هؤلاء الكفار من رسلهم عموماً، وكفار قريش خصوصاً الذين قالوا في كلامهم ولغوهم عن الحبيب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما حكى عنهم المولى عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون/٧٠]، ومن قبل هذه الآية نعى عليهم المولى سبحانه وتعالى عدم تدبرهم لآيات القرآن الكريم، وإنكارهم لصفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي كان عليها قبل مجيء الوحي إليه ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون/٦٨، ٦٩]. فإذا كان القرآن الكريم قد قص علينا هذا في شأن الكفار ولغوهم، فإنه ـ في المقابل ـ قد مدح المؤمنين هنا بتصديقهم للنبي ـ صلى الله عليه وسلم من قبل فيما جاء، وإعراضهم عن لغو الكفار في ذلك، وليؤكد أنهم بمنأى عن هذا السَّقَط الذي يتردد على ألسنة الكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾.

هذا، وقد تعددت أقوال العلماء في المراد من "اللغو" هنا إلى عدة أقوال منها:

الأول: (الشرك) رواه أبو صالح عن: "ابن عباس". والثاني: (الباطل) رواه ابن أبي طلحة عن: "ابن عباس". والثالث: (المعاصي) قاله: "الحسن". والرابع: (الكذب) قاله: "السدي". والخامس: (الشتم والأذى) الذي كانوا يسمعونه من الكفار، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان/٧٢]) أي: إذا سمعوا الكلام القبيح أكرموا أنفسهم عن الدخول فيه. قاله: "مقاتل".

وقال الزجاج: اللغو: كل لعب ولهو، وكل معصية فهي مطرحة ملغاة، وقال أيضا: هو كل باطل ولهو، وما لا يحمد من القول والفعل[2].

وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع ﴿ٱللَّغْوِ﴾ على جميعها، ولكن إذا أردنا أن نستخلص منها قولاً يجمع هذه الأقوال كلها وغيرها، فنقول إن ما قاله ابن عباس: من

---

(١) راجع: مواطن ذلك في سورة المؤمنون: الآيات/٢٣ـ٥٦.

(٢) زاد المسير في علم التفسير/عبد الرحمن الجوزي ٥/٤٦٠، وانظر: تفسير البغوي ٥/٤٠٩.

أن المراد باللغو:الباطل، يعد قولاً جامعاً يدخل فيه كل ما قيل عنه، كما يشمل أيضاً قول من قال:بأنه الغناء،أو أنه الأمر الذي لا يُعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه صاحبه على فائدة، ولا على نفع.

أما معنى "إعراضهم عنه":فالمراد أنهم: يتركونه وينصرفون عنه، ويتجنبونه ولا يلتفتون إليه.

وإذا أنعمنا النظر في نظم هذه الآية الكريمة فإننا نجده قد تعاون في إبراز المعنى الذي أراد البيان القرآني أن يسجله في هذه الصفة للثناء على هؤلاء المفلحين تعاوناً جلياً،هذا المعنى الذي يبرزه هذا النظم هو: أن هؤلاء المؤمنين من طبيعتهم أنهم يعرضون عما لا يعنيهم من الأقوال والأفعال، وما لا خير فيه ولا فائدة في جميع أحوالهم، وأن سبب إعراضهم عنه ليس لأنهم مشغولون بالجد من أمور الدين، وأنهم لذلك ليس لديهم وقت للغو، وإنما لأن طبيعتهم تأباه وترفضه لما فيه من الذم وإسقاط المروءة، يقول أبو السعود:إنهم معرضون عن اللغو "في عامة أوقاتهم، فيدخل في ذلك إعراضهم عنه حال اشتغالهم بالصلاة دخولاً أولياً، وأن مدار إعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية إلى الإعراض عنه، لا مجرد الاشتغال بالجد في أمور الدين . كما قيل .؛ فإن ذلك ربما يُوهم أن لا يكون في اللغو نفسه ما يزجرهم عن تعاطيه"[1].

ونظم الآية قد ساعد . كما أشرت من قبل . إلى إعلاء هذا المعنى وإبرازه للعيان، انظر إلى الاسم الموصول والعطف الذي قبله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ودلالة ذلك، وما ذكر في جملة صلته ﴿هُمْ ... مُعْرِضُونَ﴾ على أنّ هذه صفة جديدة من الصفات المتعددة لهذا الموصوف، وهم أهل الإيمان،وهي تدعم وتؤكد استحقاقهم للثناء عليهم، ثم تأمل في تقديم متعلق الخبر ﴿عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ وما يفيده من الاهتمام والعناية به، ثم في التعبير عن الترك بالإعراض،فلم يقل:"والذين هم للغو تاركون"،للدلالة على أنهم لا يفعلونه، ولا يرضون به، ولا يخالطون من يأتيه، كما أن اسمية جملة الصلة والمسند فيها يدلان على ثبات هذا الوصف لهم واستمرارهم عليه، وتميزهم به، أي:إنهم دائمون على تجنب اللغو

---

(١) تفسير أبي السعود مجلد٢ /ج٦ /١٢٤، وانظر: روح المعاني مجلد / ٥ /ج١٨/ ٤، وتفسير البيضاوي ٤/ ١٤٦. وممن ذهب إلى أن سبب إعراضهم عن اللغو هو: انهماكهم بالجد في أمور الدين. الزمخشري ٣/ ١٧٩، وأبو حيان٦ /٣٦٦،وغيرهما.

والإعراض عنه،ثم لماذا قال في المسند: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ولم يقل مثلا:"والذين هم عن اللغو يعرضون، أو والذين هم لا يلهون،أو لا يلغون"؟!

يقول الآلوسي: في الإجابة عن ذلك إن قوله ﴿مُعْرِضُونَ﴾ " أبلغ من أن يقال(لا يلهون)،من وجوه:جعل الجملة اسمية: دالة على الثبات والدوام، وتقديم الضمير المفيد لتقوّى الحكم بتكريره، والتعبير في المسند بالاسم الدال .كما شاع .على الثبات، وتقديم الظرف عليه المفيد للحصر[1]، وإقامة الإعراض مقام الترك؛ ليدل على تباعدهم عنه رأساً مباشرة، وتسبباً وميلاً وحضوراً، فإن أصله أن يكون في عُرْض،أي: ناحية، غير عُرضه".[2]

إن المقام لما كان مقام مدح وثناء ناسب ذلك أن يأتي بأعلى صفات المديح، فجاء بلفظ "الإعراض"اسماً؛ ليدل على إعراضهم عن اللغو كليةً، سماعاً أو حضوراً أو ميلاً،أو غير ذلك؛لأنه يكون في جهة، وهم في جهة أخرى بعيدين عنه، كما أن الذي لا يلهو أو لا يلغو:" قد لا يُعرِض عن اللغو بل قد يستهويه، ويميل إليه بنفسه ويحضر مجالسه، أما الإعراض عنه،فإنه أبلغ من عدم فِعله،ذلك أنه أبعد في التَّرك،فإن المُعرض عن اللغو علاوة على عدم فعله، ينأى عن مشاهدته وحضوره وسماعه، وإذا سمعه أعرض عنه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ ،فهم لم يكتفوا بعدم المشاركة فيه، بل هم ينأون عنه"[3].

أرأيت كيف أدّى النظم دوره في جلاء هذه الصفة، وحثّ على تجنبها والبعد عنها؟! فسبحان من أحكم كلامه، وأبدع بيانه، وأحاط بأسراره!

الآية الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

هذا هو الوصف الثالث الذي ذكره المولى عز وجل لعباده المؤمنين المفلحين،إنهم يؤدون زكاة أموالهم على اختلاف أنواعها، ويفعلون كل ما يزكي أنفسهم من الأعمال

---

(١) المراد من الحصر هنا: هو الحصر المبالغ فيه،أي: الذي يكون مبنياً على سبيل الادعاء، فيكون من باب القصر الحقيقي الادعائي؛ وذلك بادعاء أن غير اللغو من الصفات السيئة غير معتد به بجانب هذه الصفة؛ لشدة خطرها، ولعل هذا هو ما قصده الآلوسي من قوله: إن تقديم الظرف هنا لإفادة الحصر.

(٢) روح المعاني مجلد / ٥ /ج١٨/ ٤، وقد نقل ذلك عن أبي السعود راجع: مجلد٢ /ج٦ / ١٢٤، ولسان العرب: مادة(عرض).

(٣) لمسات بيانية ص١٣٦، والآية من سورة القصص / من الآية / ٥٥.

الصالحة، إن هذه الفريضة تعد من الصفات المصدقة للإيمان بالله تعالى، وبما أُعِدَّ لفاعلها من الثواب العظيم، والنعيم المقيم،إنها دليل على صفاء قلب مخرجها، ونقاء سريرته من الشح والبخل؛حيث طمع فيما عند ربه، واستجاب لترغيب الله لعباده، وحثّه لهم على البذل والعطاء، في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ... ﴾[النحل/٩٦] الآية، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا... ﴾ [المزمل/٢٠] الآية، فسارع بإخراجها، ولم يتوان في ذلك، إنها الطبيعة الإيمانية التي تجعل الإنسان قوّي الصلة مع خلق الله، كما هو قوّي الصلة بالله عز وجل.

إن مدح المؤمنين بأدائهم لزكاة أموالهم يلحظ أنه قد جاء عقب مدحهم بالخشوع في الصلاة، وذلك ليجمع لهم الثناء بين ما يتعلق بالبدن، وما ينتج عنه من حركة في الحياة وهو المال، وليس ذلك فحسب، بل أيضاً ليدل على أنهم بلغوا فيهما مبلغاً عظيماً، يقول أبو السعود:"جاءت هذه الصفة بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة، للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية، والتجنب عن المحرمات، وسائر ما توجب المروءة اجتنابه. وجاء ـ توسيط حديث الإعراض بينهما، لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة"(١).

أما صاحب التحرير والتنوير فقد أشار إلى أن السبب في ذلك يرجع إلى الترابط الوثيق بين الفريضتين، ولذا لا تأتيان في القرآن الكريم ـ كثيراً ـ إلا متلازمتين، وما ذكر من الفصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو لا يعد فاصلاً حقيقياً؛لأنه ليس أجنبياً، إذ هو من متعلقات الصلاة، أو من متمماتها، قال:"وعقب ذكر الصلاة بذكر الزكاة؛ لكثرة التآخي بينهما في آيات القرآن، وهذا من آداب المعاملة مع طبقة أهل الخصاصة وهي ترجع إلى آداب التصرف في المال، وإنما فصل بينهما هنا بالإعراض عن اللغو؛لأن الصلاة في الأصل الدعاء، وهو من الأقوال الصالحة، فكان اللغو مما يخطر بالبال عند ذكر الصلاة بجامع الضدية، وكان الإعراض عنه مما تقتضيه الصلاة والخشوع؛ لأن من اعتاد القول الصالح تجنب القول الباطل، ومن اعتاد الخشوع لله تجنب قول الزور، والإعراض عن جنس اللغو من

(١) تفسير أبي السعود مجلد٢/ج٦/ ١٢٤، وانظر: تفسير البيضاوي٤/ ١٤٧، وروح البيان٦/ ٦٦.

خلق الجد، ومن تخلق بالجد في شؤونه كملت نفسه، ولم يصدر منه إلا الأعمال النافعة، فالجد في الأمور من خلق الإسلام، والإعراض عن اللغو يقتضي بالأولى اجتناب قوله، كما يقتضي تجنب مجالس أهله"[1].

أما صاحب نظم الدرر فقد ركّز هنا على جهة ربط أخرى، وهي التي بين وصف الزكاة وما ذكر قبلها من الإعراض عن اللغو. وكأن العلاقة التي بين الصلاة والزكاة أضحت أمراً مسلّماً به، فليس هناك ما يدعو للتوقف أمامها ـ فقال:" ولما جمع بين قاعدتي بناء التكاليف: فعل الخشوع وترك اللغو، وكان الإنسان محل العجز ومركز التقصير، فهو لا يكاد يخلو عما لا يعنيه، وكان المال مكفراً لما قصد من الإيمان فضلاً عما ذكر منها على سبيل اللغو، فكان مكفراً للغو في غير اليمين من باب الأولى، فقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة/ ١٠٣]، أتبعه قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٤] ليجمعوا في طهارة الدين بين: القلب والقالب والمال"[2].

هذا الترابط الوثيق بين مجيء المدح بالزكاة عقب المدح بالصلاة، يدفعنا إلى القول بأن المتبادر من لفظ"الزكاة" هنا أنها الزكاة المعروفة، وهي: زكاة الأموال، خاصة أنها ارتبطت بصفات المؤمنين، ثم جاء ذكرها بعد ذكر الصلاة، وهذا الاختيار هو قول أكثر العلماء، يقول ابن كثير:" الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا: زكاة الأموال، مع أن هذه [الآية] مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن التي فرضت بالمدينة إنما هي ذات النُّصَب والمقادير الخاصة، وأن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[3].

ويؤكد هذا الاختيار أيضاً الإمام الرازي بقوله، والقول الثاني في الزكاة:" وهو قول الأكثرين أنه: الحق الواجب في الأموال خاصة، وهذا هو الأقرب؛ لأن هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى. فإن قيل: إنه لا يُقال في الكلام الفصيح إنه:"فعل الزكاة". قلنا: قال:" صاحب الكشاف" الزكاة: اسم مشترك بين عين ومعنى. فالعين: القدر الذي يخرجه المزّكي من النصاب إلى الفقير. والمعنى: فعل المزّكي الذي هو:

---

(١) التحرير والتنوير ١٨/ ١٠-١٢.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٥ / ١٨٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٦٢، والآية من سورة الأنعام /١٤١.

التزكية، وهو الذي أراده الله تعالى، فجعل المزّكين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره؛ لأنه ما من مصدر إلا يعبر عن معناه بالفعل، ويقال لمحدثه: فاعل. يُقال للضارب: فاعل الضرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمزّكي: فاعل الزكاة، وعلى هذا الكلام كله، ويجوز أن يراد بالزكاة: العين، ويقدر مضاف محذوف وهو: الأداء، فإن قيل: إن الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة، فلِمَ فصل ههنا بينهما بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ؟.قلنا: لأن الإعراض عن اللغو من متممات الصلاة"[1].

كما يدعمه ما قاله ابن فارس في كتاب الأفراد: إنّ كل ما في القرآن من "زكاة" فهو: المال إلا قوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم/١٣]أي: طُهْرَة.[2]، وأضيف إليها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الآية/٨١].أي:صلاحاً وطهارة ونقاء من الذنوب.

وهذا الترجيح لا يمنع من أن يُحمل لفظ"الزكاة" أيضاً على معنى: الفضائل، كأنه أراد الأزكى من كل فعل، يقول الرازي نقلاً عن أبي مسلم:"إن فعل الزكاة: يقع على كل فعل محمود مرضي كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى/١٤]، وقوله:﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ النجم/٣٢]، ومن جملته ما يخرج من حق المال،وإنما سمى بذلك؛ لأنها تطهر من الذنوب لقوله تعالى:﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة/١٠٣]"[3]

كما أشار إلى ذلك أيضاً ابن كثير، وذكر أنه لا مانع من أن يحمل اللفظ على المعنيين معاً، يقول: "وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس/٩،١٠]، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو: زكاة النفوس، وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم"[4].

إن التعبير بكلمة ﴿فَٰعِلُونَ﴾ مع(الزكاة) حين ورد في هذا الموضع ولم يرد في غيره من القرآن الكريم، كان ذلك مدعاة للتساؤل والبحث عن سر مجيئه في هذا السياق،

---

(١) تفسير الفخر الرازي٢٣/٧٠، وانظر: الكشاف٣/١٧٩، والبحر المحيط٦/٣٦٦.

(٢) الإتقان٢/١٣٢.

(٣) تفسير الفخر الرازي٢٣/٧٠.

(٤) تفسير ابن كثير٥/٤٦٢، والآيتان من سورة: الشمس/٩،١٠.

فـذهب بعـض العلمـاء إلـى القـول بأنهـا لغـة فـصيحة وردت فـي شـعر العـرب[1]، وذهـب بعضهم: إلى أن المراد من الزكاة هنا ليست زكاة الأموال، وإنما التزكية بمعناها العام[2]. ولكن يبدو والله أعلم أن السر في ذلك هو أن البيان القرآني ـ وهو في هذا المقام، مقام الثناء والمدح ـ يريد أن يفرد هؤلاء المؤمنين، ويميزهم بأوصاف مخصوصة لا يشاركهم فيها غيرهم، فأدى ذلك إلى انتقاء ألفاظ فيها خصوصية أيضاً تتناغم مع تلك الأوصاف المنتقاة، إن اختيار كلمة ﴿فَٰعِلُونَ﴾ للتعبير عن أداء المؤمنين لفريضة الزكاة هنا يعد أبلغ من مثل:"مؤدون،أو مؤتون،أو معطون،أو عاملون...إلخ"؛لأسرار ونكات كثيرة، منها:

أولاً:أن هذه الألفاظ ليس فيها تلك الخصوصية، وإنما يشترك في الاتصاف بها كل من أخرج شيئاً من ماله تحت اسم الزكاة أو غيره.

ثانياً:أن لفظة(الفعل)تحمل بين طياتها إيحاءات تعم وتشمل تلك الألفاظ المذكورة وغيرها،فكل من الأداء والإعطاء والإخراج وغير ذلك،يصدق عليه الفعل وليس العكس، وإذا أردنا التدليل على ذلك فلننظر مثلاً إلى الموازنة بينها وبين (العمل) فسنجد أن "العمل" يستعمل في الشيء الذي يحتاج إلى مساحة من الوقت، أما "الفعل" فيستعمل في الشيء الذي لا يحتاج إلى ذلك، وإنما يكون على وجه السرعة.

ثالثاً: أن الله عز وجل أراد أن يقول: إن الزكاة بالنسبة إليهم صارت سجية وطبيعة فيهم كأي فعل من أفعالهم الكثيرة الخيّرة دائماً،وأن من طبيعتهم أنهم يفعلونها طواعية من أنفسهم من غير مشقة ولا تكلف، كما أنهم يأتون بها على وجه السرعة من غير توانٍ ولا تباطؤ منهم، وذلك على سبيل الدوام.

رابعاً: أنها تتفق مع ما جاء في سياق السورة نفسها، عندما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون/٥٧-٦١]، وفعلهم للزكاة يعتبر من أفضل أمور الخير التي يسارعون إليها، ويتسابقون فيها.إن هذه العبادة المالية تُعَدُّ أصعب على النفس من العبادة البدنية؛لأن العبادة البدنية لا تكلف الإنسان شيئاً بخلاف العبادة المالية؛فالإنسان عندما يقوم بفعلها

---

(١) ينظر:الكشاف ٣/ ١٧٩، والبحر المحيط ٦/ ٣٦٦.

(٢) ينظر: لسان العرب مادة (زكا).

يدخل في صراع مع نفسه، فإذا قام بإخراجها وأداها لمستحقيها فقد حقق الفوز والنصر على شح نفسه، فما بالنا إذا أسرع وبادر بها طواعية دون أن يراوده هذا الصراع الداخلي، لا شك ـ والحالة هذه ـ أنه يستحق الثناء بوصف فيه خصوصية تميزه عن غيره.

خامساً: " أن الزكاة إنما وجبت لتزكية النفس عن الصفات الذميمة النجسة من حب الدنيا أو غيره كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة/١٠٣]، والفلاح إنما يكون في تزكية النفس، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس/٩، ١٠]، ولم يكن المراد: مجرد إعطاء المال وحبه في القلب، وإنما كان لمصلحة إزالة حب الدنيا عن القلب، ومثل حب الدنيا جميع الصفات الذميمة إلى أن تتم إزالتها"[١].

سادساً: أن ﴿فَٰعِلُونَ﴾ تعني: أن نيتهم في الفعل أن يفعلوا على قَدْر طاقتهم، ويجتهدوا لتوفير شيء بعد نفقاتهم يتصدقون منه؛ ابتغاء وجه الله، إنهم يعملون وفي بالهم المولى تبارك وتعالى؛ولذا فإن الله عز وجل لم يعن بمدحه لهم أنهم مُؤدون للزكاة فقط،لا،بل بما هو فوق ذلك؛لأن المؤمن يتحرك ويعمل ويسعى، وفي نيته مَن لا يقدر على السَّعي والعمل، فكأنه يُقبل على العمل ويجتهد فيه، وفي نيته أن يعمل شيئاً لله بما يفيض عن حاجته من ناتج عمله،وهذا ما يُميِّز المؤمن في حركة الحياة عن الكافر[٢].

هذه الأمور وغيرها كانت وراء اختيار كلمة ﴿فَٰعِلُونَ﴾ في هذا السياق، ولا يمكن أن يحل محلها أي لفظ آخر.

إن أمر الإنفاق عموماً، وإخراج الزكاة خصوصاً، يُعَدُّ من الأمور الشاقة على النفس، فحب المال وإمساكه من طبيعة الإنسان التي جُبِل عليها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات/٨]، إن هؤلاء الممدوحين قد تغلبوا على طبيعتهم الإنسانية التي جبلت على حب المال، فسارعوا إلى إخراجه وبذله دون تباطؤ منهم أو تقاعس، فاستحقوا هذا الثناء بكلمة ﴿فَٰعِلُونَ﴾.

---

(١) روح البيان٦/٦٦.

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي١٨/٦٠٤٧ بتصرف.

ثم جاء في نظم الآية أيضاً ما يقوّي نسبة هذا الوصف لهم، إنها اللام التي جاءت مع الزكاة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ ﴾ لتتناغم مع ﴿فَٰعِلُونَ﴾ في تقوية وتأكيد مداومة المؤمنين على فعلهم لهذه العبادة التي تتعلق بحظ المال، وأنهم لم يتوانوا في ذلك، وبالإضافة إلى وجود اللام فهناك تقديم لفظ الزكاة، واسمية الجملة، وغير ذلك مما تعرضت له من قبل، كل هذه العناصر تعاونت في جلاء هذا الوصف للممدوحين.

أرأيت كيف قام النظم بدوره في بيان هذه الصفة خير قيام،مع جمال التعبير، وجلال الأداء، وإصابة الغرض؟! وكل ذلك يؤكد على أن البيان القرآني" في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسَّها رحماً بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها، وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين، لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلاً، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان"[1].

الآيات الخامسة، والسادسة، والسابعة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾.

هذه الآيات الثلاث تجسد فضيلة أخرى من فضائل هؤلاء المؤمنين المفلحين، إنها فضيلة، نعم الفضيلة، إنها فضيلة الصفاء والنقاء، فضيلة الطهارة والعفاف، لقد ذكر الله عز وجل فيها:صفة حفظ الفروج التي تميّز بها أهل الإيمان عن غيرهم، والتي بها استحقوا أن يرثوا الفردوس، ويخلدوا فيه،إنهم يحفظون فروجهم من:"اللواط والزنا، ونحو ذلك،من الفسوق والفجور، ثم بيّن أن حفظهم لفروجهم، لا يلزمهم عن نسائهم الذين ملكوا الاستمتاع بهن بعقد الزواج أو بملك اليمين، ـ والمراد به التمتع بالسراري ـ كما بيّن أن من لم يحفظ فرجه عن زوجه أو سريته لا لوم عليه، وأن من ابتغى تمتعاً بفرجه وراء ذلك،أي: غير الأزواج والمملوكات فهو من العادين، أي: المعتدين المتعدّين حدود الله، المجاوزين ما أحله الله إلى ما حرمه"[2].

---

(١) النبأ العظيم د.محمد عبد الله دراز ص٩٢،ط: دار القلم ـ الكويت. ط: الرابعة: ١٣٩٧هـ.

(٢) أضواء البيان ٥ / ٣٠٨.

واللوم معناه: عذل إنسان بنسبته إلى ما فيه لوم، والفرق بينه وبين الذم، أن الذم: قد يكون مختصاً بالصفات أو بأصحابها، فيقال:الكفر مذموم، والكافر مذموم، وأما اللوم: فيختص بالأشخاص، فيقال:فلان ملوم.العادون: الظالمون المعتدون،والعدوان: الإخلال بالعدالة، والاعتداء: مجاوزة الحق.

إن من الملحوظ هنا أن مدح المؤمنين بكمال العفة والنظافة جاء عقب مدحهم بفعلهم لزكاة أموالهم، وعقب الثناء عليهم ببعدهم عن اللغو وما لا خير فيه من القول والفعل،والسبب في ذلك أن هذين الأمرين، ـ أعني: اللغو وحبس المال عن مستحقه. يعدان من أهم دواعي عدم العفة، ووجودهما معاً يكون مدعاة للخروج عنها، فأراد المولى تبارك وتعالى أن يعلي من شأن هؤلاء المؤمنين، فأشار إلى أنهم مع وفرة المال لديهم، يتحلون بمكارم الأخلاق ومحامد الفعال، يقول البقاعي:"ولما أشار إلى أن بذل المال على وجهه طهرة، وأن حبسه عن ذلك تلفة، أتبعه الإيماء إلى أن بذل الفرج في غير وجهه نجاسة، وحفظه طهرة،فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ﴾ في الجماع وما داناه بالظاهر والباطن ﴿حَٰفِظُونَ﴾ أي: دائماً لا يتبعون شهوتها، بل هم قائمون عليها يذلونها ويضبطونها.وذِكرها بعد اللغو الداعي إليها، وبذل المال الذي هو من أعظم أسبابها، عظيم المناسبة"[1].

ونظراً لأهمية هذه الصفة، وعظم خطرها بالنسبة للمجتمع الإنساني عموماً، وللمجتمع المؤمن خصوصاً، نرى المولى عز وجل قد خصها بالذكر، ونصّ عليها صراحة؛ إذ إن المجتمع الذي يتحلى بصفة التعفف عن الحرام، لا شك أنه سيكون مجتمعاً نظيفاً طاهراً خالياً من الأوبئة والأمراض التي تنتج عن مثل هذه العلاقات غير السوية، إن انتشار الإباحية والفسق والفجور، وعدم التحلي بصفة العفة في أي مجتمع من المجتمعات، لاشك أنه يؤدي ـ مع انتشار الأمراض ـ إلى اختلاط الأنساب،وانتهاك الأعراض، وإتلاف الأموال، وإيقاد الشر بين العباد، بالإضافة إلى ذلك فإن المباشرة تعد" أشهى الملاهي إلى النفس، وأعظمها خطرا"[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٥ /١٨٣.

(٢) تفسير البيضاوي ٤ /١٤٧، وانظر: روح البيان ٦ /٦٦.

إن نظم هذه الآيات الثلاث والتي تنص على الكناية عن صفة العفة، ألحظ فيه شيئاً من الغرابة؛ حيث إن الصفات المذكورة قبلها والواردة بعدها،وإن كانت قد جاءت على نسق خطاب الذكور فإنها تشمل النساء أيضاً؛ لأن هذا الخطاب وارد على سبيل التغليب، لكن نظم هذه الصفة قد جاء فيه ما هو خاص بالرجال، وما هو مشترك بين الرجال والنساء، وما ذاك إلا للفت الانتباه إليها، والوقوف أمامها؛لتأملها والسير على نهجها؛ لأن على أساسها يتوقف تماسك المجتمع أو تفككه، وارتفاع شأنه أو انحطاطه. يقول عبد الكريم الزملكاني:"هذا النظم فيه من الإغراب أنْ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ وهذه عامة في الرجال والنساء، ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وهذا عام أيضاً،وقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ خاصٌّ بالرجال؛ فإنه لا حظَّ لهن في ذلك، ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ وهذا مشترك بينهما؛ لأنَّ المعنى: فمن ابتغى من الرجال وراء ما أبيح له من التزويج وملك اليمين، ومن النساء ما أبيح لهنّ من التزويج دون ملك اليمين.ثم قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ فرجع إليها بالمعنى بعد أن فرّق بينهما بالمعنى"[1].

كما نبّه ابن العربي على الغرابة التي جاءت في نظم آيات تلك الصفة، وذلك عندما قال:"من غريب القرآن أن هؤلاء الآيات العشر هي عامة في الرجال والنساء، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم، فإنها عامة فيهم، إلا قوله﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ فإنه خطاب للرجال خاصة دون النساء، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ،ولا إباحة بين النساء وبين ملك اليمين في الفرج، وإنما عرف حفظ المرأة فرجها من أدلة أخرى،كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً، وغير ذلك من الأدلة "[2].

وإذا أنعمنا النظر في نظم هذه الآيات واختيار عناصرها فسنجد أن أجزاءها من الدقة بمكان، وإذا أردنا الدليل على ذلك، فلنتأمل قوله ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ واختيار التعبير بهذا اللفظ الصريح، الذي هو في الأصل: الشق بين الشيئين كفُرْجة الحائط، والفَرْج: ما بين الرجلين،

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي مجلد٢/ ٣/ ٣١٤، وانظر: تفسير القرطبي١٢/ ١٠٥.

والفَرْج: العورة، والفَرْج: شِوارُ الرجل والمرأة، والجمع:فُروج، والفَرْج: اسم لجمع سَوآت الرجال والنساء والفِتْيان وما حَوالَيْها كله فَرْج، وكذلك من الدَّواب ونحوها من الخَلْق[1].

إن اللافت للنظر هنا أن البيان القرآني لم يستخدم هذه الكلمة إلا في سياق حديثه عن المؤمنين في هذه السورة، وفي سورة النور، وكذلك في سورة الأحزاب،ثم في حديثه عن السيدة مريم في سورتي: الأنبياء والتحريم،ولكن ليس مع الحفظ وإنما مع لفظ الإحصان[2].وأرى أن السبب في ذلك هو أن المؤمنين هم أولى الناس بالمخاطبة بهذا الأمر، وذلك لإرشادهم إلى ما يعلي أقدارهم، ويرفع درجاتهم، وليكونوا في ذلك مثلاً يحتذى.لقد أمرهم الله عز وجل بقصر سوآتهم على" المهمة التي خلقت من أجلها، ومهمة هذه الأعضاء إما:إخراج عادم الجسم من بول وغائط، وإما:العملية الجنسية، وهدفها حفظ النسل، وعلى الإنسان أن يحفظ فرجه على ما أحله الله له من الزوجات أو ملك اليمين،فمن فعل ذلك فإنه لا يلام،أي:لا نمدحه ولا نذمه،وكأنّ المسألة هذه في أضيق نطاق"[3].

وإنّ من تمام حفظ تلك السوآت تجنب ما يدعو إلى الاقتراب منها كالنظر واللمس وغيرهما مما يكون سبباً في انتهاكها، والقرآن ألمح إلى ذلك عندما نهى عن هذه الجريمة النكراء. جريمة الزنا. فلم يقل: ولا تزنوا، بل قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء/٣٢]) أي:عليكم أن تتجنبوا وتبتعدوا عن كل ما يقربكم من حدوثها.

---

(٣) راجع: المفردات في غريب القرآن مادة(فرج)٢/٢٨٠، لسان العرب مادة (فرج).

(١) الآيات: في سورة النور:هي الآية/٣٠، ٣١ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ...﴾ و﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ...﴾ وفي سورة الأحزاب الآية/٣٥ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...إلى قوله:وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ...الآية﴾ وفي سورة الأنبياء الآية/٩١ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا... الآية﴾ وفي سورة التحريم الآية/١٢ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا... الآية﴾ والإحصان معناه:المنع مطلقاً أي: أنها منعت فرجها عن النكاح بقسميه الحلال والحرام، كما قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ .سورة/ مريم٢٠،وقد كان التبتل والترهب إذ ذاك مشروعاً للنساء والرجال. ينظر:من عطاء نظم القرآن الكريم د/ عبد الحميد العيسوي ص٢٧٤ ط: أبناء وهبة . القاهرة ،ط: الأولى١٤١٠هـ. ١٩٩٠م.

(٢) تفسير الشعراوي١٨/٦١٢٠.

إن القرآن الكريم كما يستخدم الكناية في المقام الذي يستدعيها كقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ...﴾ [المجادلة/٤]، وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة/١٨٧]، يستخدم التصريح في السياق الذي ينادي عليه، كما هنا؛ لأن الأمر يتعلق بشيء خطير جداً، ألاَ وهو العِرض والشرف الذي هو أغلى وأثمن ما يملكه الإنسان،إذاً فالمقام لا يصح فيه إلا التصريح؛حتى يكون هناك زيادة حرص وصون لهذا الفرج ألاّ يمس بفاحشة الزنى.يؤكد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره، عن أبي العالية، قال:" كل آية في القرآن يذكر فيها "حفظ الفَرْج"فهو من الزنى،إلا قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور/٣٠]، فالمراد: حفظها عن الأبصار حتى لا يراها أحد"[1].

ثم ما السر في اختيار حرف اللام دون غيره، ليدخل على هذه الأوصاف الثلاثة المتتالية، وهي: ﴿لِلزَّكَوٰةِ ۝ لِفُرُوجِهِمْ ۝ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ ؟

أقول في الإجابة عن ذلك: إنّ هذه الأمور الثلاثة تتجلى فيها شهوتان محببتان إلى النفس البشرية، إنهما شهوتا المال والفرج، فيتمثل في الأول: شهوة المال،وفي الثاني: شهوة الفرج، أما الثالث: فيجمع بينهما، فجاءت هذه اللام لتشير إلى اهتمام المؤمنين واختصاصهم بتلك الأمور، ولتدل على تأكيد وترسيخ وتقوية نسبة هذه الصفات لهم،يؤكد ذلك أيضاً أن هذه الصفة جاءت في سورة الأحزاب بدون هذه اللام فقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب/٣٥]) ولم يقل: والحافظين لفروجهم؛ لأن المقام هناك مجرد تعداد صفات من أعد الله لهم المغفرة والأجر العظيم،وبالتالي فهو ليس في حاجة إلى تأكيد.

هذا، وهناك كثير من العلماء قد ذكروا وجوهاً متعددة لمجيء حرف الجر"على" في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ على اعتبار أن (حفظ) لا يتعدى بعلى، منها:أن "اللام" هنا بمعنى" على"، والمراد:والذين هم على فروجهم يحافظون،ثم استثنى "على" الثانية منها فقال:إلا على أزواجهم . وإلى هذا الرأي ذهب الفراء[2]،كما نسب إليه وجه

---

(١) الإتقان٢/١٣٧، وانظر:أحكام القرآن مجلد٢/٣/٣٧٨.

(٢) ينظر: لسان العرب مادة: (فرج).

آخر وتبعه فيه ابن مالك وغيره، وهو:أن "على" بمعنى"من"ويكون المعنى: والذين هم لفروجهم حافظون إلا من أزواجهم، كما استعملت"من"بمعنى"على"في قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾[الأنبياء/٧٧] أي: على القوم، ومنها: أن ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾في موضع الحال،أي: إلاّ والين على أزواجهم، أو قوّامين عليهن،والمعنى:أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريهم،أو تكون"على" متعلقة بمحذوف يدل عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾،كأنه قيل:يلامون إلا على أزواجهم،أي: يلامون على كل مباشرة إلا على ما أطلق لهم، فإنهم غير ملومين عليه،أو تكون صلة"لحافظون" من قولك: احفظ عليّ عنان فرسي، ويكون المعنى: أي: والذين هم لم يحفظوا فروجهم إلا على أزواجهم،فيكون استثناء مفرغاً متعلقاً فيه"على"بما قبله. وإلى هذه الوجوه الثلاثة ذهب الزمخشري، وقد أشار أبو حيان إلى أنها وجوه متكلفة،ثم ذكر وجهاً آخر قال عنه: إنه الأولى،وهو:أن يكون ذلك من باب التضمين، ضُمِّن"حافظون" معنى: ممسكون أو قاصرون، وكلاهما يتعدى بعلى، كقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب/٣٧]"[1].

ثم انظر إلى اختيار كلمة الحفظ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ولِمَ آثر القرآن التعبير بها دون غيرها، فلم يقل مثلا: "ممسكون،أو قاصرون،أو صائنون، أو حاجزون، أو غير ذلك؟.

أقول: إن وراء انتقاء كلمة الحفظ واختيارها لتكون مع الفرج سرّاً بديعاً وعجيباً،وهو أن الذي يحفظ "فرجه عما لا يحل يكون حافظاً لنفسه ولفرجه من الآفات والأمراض والأوجاع التي تصيبه، وهي أمراضٌ وبيلةٌ وخيمةُ العاقبة، ومن أرسله في المُحرَّمات، فإنما يكون قد ضيّعه وضيّع نفسه، جاء في الحديث:"لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يُعلِنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا"[2].

ثم انظر إلى البيان القرآني وهو يعطي في كل صفة شيئاً ما يرقّي تلك الصفة عند هؤلاء المفلحين، إنه هنا قد أغلق باب العفة عند الحفظ، ثم فتحه شيئاً بسيطاً بالاستثناء فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾؛ للدلالة على أنّ

---

(١) راجع: هذه الوجوه في البحر المحيط٦/٣٦٦،والكشاف٣/١٨٠، وتفسير النسفي٣/١٧٠.

(٢) سنن ابن ماجه: باب العقوبات٢/١٣٣٢ حديث رقم (٤٠١٩)، وانظر: لمسات بيانية ص١٤٣.

الأصل في هذا هو الاحتراز، وأن إغلاق الباب في هذا الموضوع هو المقدم على فتحه، وأن هذا الباب يجب الاحتراس فيه أكثر من غيره. ولما كان الأصل في ذلك هو التضييق والإغلاق جاءت تلك الصفة نفسها في سورة الأحزاب على العموم والإطلاق، فلم يأت فيها بالاستثناء، فقال تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، وبالتالي يحمل المطلق على المقيد، وهذا مما يؤكد أن القرآن الكريم كما يأتي بالمطلق في مكانه، فإنه يأتي بالمقيد في مكانه أيضاً،كلٌ مرتبط بسياقه.

ثم ألمح في اختيار حرف الجر "على"في الآية الثانية: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ...﴾دون غيره، سراً لطيفاً، وهو أن الخطاب هنا يتعلق بالرجال، ولما كانوا أعلى درجة، وأصحاب قوامة على الزوجات والمملوكات، ناسب ذلك أن يأتي هذا الحرف الذي يدل على الاستعلاء الحسي والمعنوي. يقول صاحب تفسير روح البيان: وإنما ذكر لفظ "﴿عَلَىٰٓ﴾ لاستيلائهم على أزواجهم، لا لاستيلائهن عليهم، وكانوا عليهن لا مملوكين لهن"[1].

ثم انظر في تركيب هذا النظم إلى اختيار اسم الموصول (ما) ـ الذي يستخدم لغير العاقل ـ مع المملوكات وهن من العقلاء، وكان المناسب في ذلك هو(من)، فما السر وراء ذلك؟

أقول في الإجابة عن هذا: إن القرآن الكريم قد نزّل المملوكة هنا منزلة غير العاقل؛ نظراً لأنها تُباع وتشترى، فأشبهت الأمور التي تتملك كالعقارات وغيرها من الأموال، كما أنهن في درجة أقل من الحرائر؛ ولذا جاء التعبير عنهن كالتعبير عن غير العاقل. يقول الفخر الرازي:"هلا قيل (أو مَن ملكت أيمانهم)؟. الجواب: لأنه اجتمع في السرية وصفان: أحدهما: الأنوثة، وهي مظنة نقصان العقل. والآخر: كونها بحيث تباع وتشتري كسائر السلع،فلاجتماع هذين الوصفين فيها، جُعلت كأنها ليست من العقلاء"[2].

ثم تأمل مجيء جملة﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾بعد قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾الذي فهم منه المعنى المراد: وهو رفع الملامة في عدم حفظ الفرج عن الزوجة والمملوكة فقط،أي: أنهم لا يلامون على الحلال إذا كان على الوجه الذي أذن فيه

---

(١) ٦/ ٦٧.

(٢) تفسيره ٢٣/ ٧١، وانظر: الكشاف ٣/ ١٨٠.

الشرع،أما إذا كان إتيانهما على غير ذلك فإن اللوم يوجه حينئذ لفاعله، وذلك كالإتيان في غير المأتى، أوحال الحيض أو النفاس أو العدة أو الإحرام أو غير ذلك، هذا المعنى فهم من خلال الاستثناء المذكور،فلِم جيء بهذه الجملة ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾بعد ذلك؟.

أقول: إن هذه الجملة تعد جملة تعليلية للاستثناء الذي ذكر قبلها، والذي يدل على من لا يجب عليهم حفظ فروجهم منه، وهن الزوجات والمملوكات.هذا الاستثناء أفاد أنه لا يمنع عدم الفلاح، ولكنه لم يفهم منه صراحة عدم اللوم، فجاءت جملة: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لتفيد بصريح لفظها أن عدم الحفظ الذي يتعدى الأزواج وملك اليمين مما يستوجب اللوم؛ ليبتعد عنه المؤمنون، أما في الأزواج وملك اليمين فليس فيه لوم، إنها أفادت المعنيين معاً،وهو أنّ ذلك لا يمنع عدم الفلاح، ولا يوجب اللوم. . وقد رُبِطَتْ بما قبلها بالفاء؛ لأن الاستثناء لما كان في قوة الشرط أشبه التفريع عليه جواب الشرط، فاستوجب الربط بالفاء؛ لأنه جملة اسمية فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ . أما من لم يحفظ فرجه عن غيره من الخلق فإنه يوبخ ويذم، ويعد بفعله هذا قد ارتكب ذنباً كبيراً، يلام عليه أشد اللوم، بل ويصبح من العادين المعتدين الذين تجاوزوا ما أحل الله لهم إلى ما حرم عليهم، وهذا المعنى هو الذي أفادته الجملة التفريعية الأخرى على جملة الاستثناء، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ ، يقول ابن عباس . رضي الله عنهما . : لقد"رَضِي الله لهم إتيانهم أزواجهم، وما ملكت أيمانهم. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: فمن التمس لفرجه مَنكحاً سوى زوجته، وملك يمينه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: فهم العادون حدود الله، المجاوزون ما أحل الله لهم إلى ما حَرّم عليهم"[1].

ثم تأمل هذا العموم الذي جاء دالاً على منع التجاوز عما أحله الله بصيغة عامة وشاملة في بداية قوله: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ ﴾، وانظر إلى جزاء الشرط، وما فيه من عناصر أدت إلى هذا التمييز الشنيع الذي تميز به من لم يكتف بالحلال مع اتساعه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ ،إنهم ليسوا فاسقين ولا ضالين ولكنهم العادون المعتدون، إن ذكر الفاء في بداية هذه الجملة؛ يؤذن بسرعة ترتب الجزاء على العمل، ثم التعبير باسم

---

(١) تفسير الطبري ١٩/ ٦٩٨.

الإشارة للبعيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، يدل على بعد منزلتهم في العدوان والاعتداء، وبأنهم متميزون بهذا الوصف أكمل تمييز وأتمه، وضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ ،يشعر بحصر هذا الوصف فيهم لا في أحد غيرهم، ثم مجيء الخبر اسم فاعل محلى بأل﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ ، يكشف عن أنهم الكاملون في العدوان، المستحقون لهذا الوصف دون غيرهم، فالاعتداء قصر على من يبتغي ما سوى ما حدده الشرع له، قصر صفة على موصوف. كل هذه العناصر تدل دلالة واضحة جلية على ثبات وتقوية وتأكيد نسبة الاعتداء وتجاوز الحد لمن ارتكب شيئاً من ذلك؛ ليزيد المؤمنين تحذيراً، حتى يكونوا أهلاً للجزاء الذي أعد لهم.

كما أن هذه العناصر فضلاً عن أنها تدل على المبالغة في الاعتداء واختصاصهم به وقصره عليهم، فإنها تفيد أن هؤلاء هم أولى مَن يوصفون بالعدوان؛ لأنهم يعتدون على أنفسهم بما يجرّون عليها من وبال وأوجاع وعاهات مستديمة، قد تصل إلى حد الجنون، ويعتدون على أزواجهم وعوائلهم، بما ينقلونه إليهم من هذه الأوجاع والأمراض، ويعتدون على أولادهم، وعلى الجيل اللاحق من أبنائهم، ممن لم يظهروا إلى الدنيا، بما يُلحقونه بهم من الآفات المستديمة، ويعتدون على المجتمع الذي يعيشون فيه، بما ينقلونه إليه من أمراض معدية مرعبة، وما (الإيدز) إلا واحد من هذه الأمراض الوبيلة المرعبة،إننا نعرف أن المعتدي قد يعتدي على بيت أو قبيلة، أما أن يمتد العدوان إلى الإنسان نفسه وأولاده وزوجه، وربما إلى طبيبه الذي يعالجه،وإلى الجيل الذي لم يظهر بعد، وإلى المجتمع على وجه العموم، فهذا شر أنواع العدوان، وأولى بأن يوسم صاحبه به.إنه تعبير دقيق معجز لا يمكن أن يؤدي تعبير آخر مؤداه[1].إن الإنسان الذي ينتهك عِرض غيره يكون بلا شك . والحالة هذه . هو الإنسان المبالغ في تعدي الحدود، الكامل في العدوان، المتناهي فيه.

هذا، وفي ختام الحديث عن هذه الصفة نلحظ أن البيان القرآني قد أطال الحديث عنها، وزاد في تفصيلها؛ لأن طبيعة المؤمنين تتنافي مع هذه الصفة الذميمة، وتأبى

(١) ينظر: لمسات بيانية ص١٤٤ بتصرف.

الاقتراب منها، حيث إنّ فيها اعتداءً على حرمات الآخرين، وانتهاكاً لأعراضهم، وهذا لا يرضونه لأنفسهم، فمن باب أولى لا يحبونه لغيرهم.

كما نلحظ هنا أن بعض هذه الأوصاف التي ذكرت في سورة المؤمنون كانت بمثابة التمهيد لما جاء بعدها في سورة النور من أحكام، فصفة اللغو والكلام الساقط، وعدم حفظ اللسان، تُعَدُّ مقدمة لحادثة الإفك وما فيها من كذب وبهتان، على الطاهرة العفيفة، أُمّنا السيدة عائشة .رضي الله عنها وأرضاها .خصوصاً، وعلى المحصنات الغافلات المؤمنات عموماً،وصفة المحافظة على الفروج، وما صاحبها من لوم واعتداء، تعد تمهيداً للحديث عن الزنا ودواعيه، مما يدفعنا إلى القول بأن ما جاء في سورة النور يعدُّ بياناً وتوضيحاً لهذه الأوصاف الموجزة، فبين السورتين ارتباط جليّ، والتحام قويّ.

وأنبه إلى أنه بعد تناول هذه الصفات الأربع نلحظ أن القرآن الكريم قد نوّع فيها بين الإيجاب والسلب، فالإيجاب تمثل في قوله: ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ .وعَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ ....﴾ أما السلب فجاء في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ وكما أنّ بين صفتي الإيجاب اتفاقاً؛ حيث إن من ارتقى في صلاته فخشع لله وخضع، فإنه لا شك يكون حريصاً على إخراج زكاة أمواله،فإن بين صفتي السلب اتفاقاً كذلك، فالقول الباطل يُعَدُّ من أهم دواعي عدم المحافظة على العفة.

الآية الثامنة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ... ﴾

هذه الآية الكريمة تظهر لنا صفة أخرى من الصفات الحميدة، والأفعال الرشيدة لهؤلاء المفلحين،إنها الصفة الخامسة التي جاءت لتعلي من قدرهم، وترتقي بهم إلى أرفع المنازل، وأسمى الدرجات،إنها صفة تجمع بين طياتها فضيلتين من أعظم الفضائل وأحسن المكارم وهما:حفظهم للأمانة، ووفاؤهم بالعهد.

والأمانة هي: الشيء المؤتمن عليه، وهي: نقيضُ الخيانة؛ لأن الأمين يُؤْمَنُ أذاه، ويقال: ما كان فلانٌ أميناً، ولقد أَمُنَ يأمُنُ أَمانةً، ورجلٌ أمينٌ وأُمّانٌ، أي: له دينٌ،وقيل: مأمونٌ به ثِقَةٌ. والأمانة: لفظ عام يقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثِّقةِ والأمان وقد جاء في كل منها حديث، فمن ذلك ما روي عن ابن عباس، قال صلى الله عليه و سلم:" الإيمانُ أمانةٌ، ولا دِينَ لِمَنْ لا أمانةَ له".والأمانة في قوله عز وجل: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ

عَهْدِ...﴾[الأحزاب/٧٢] الآية كما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا: الأَمانةُ ههنا: الفرائضُ التي افْتَرَضَها الله تعالى على عباده، وقال ابن عمر: والذي عندي فيه أن الأمانة ههنا: النِّيّةُ التي يعتقدها الإنسان فيما يُظْهِره باللّسان من الإيمان، ويؤَدّيه من جميع الفرائض في الظاهر؛ لأن الله عز وجل ائْتَمَنَه عليها، ولم يُظْهِر عليها أحداً من خَلْقِه، فمن أَضْمر من التوحيد والتصديق مثلَ ما أظهرَ فقد أدَّى الأَمانةَ، ومن أَضمَر التكذيبَ وهو مُصَدِّقٌ باللسان في الظاهر فقد حَمَل الأَمانةَ ولم يؤدِّها[1].

والعهد: كل ما يتعهد به الإنسان في غير معصية،فكل ما عُوهِدَ اللَّهُ عليه، وكلُّ ما بين العبادِ من المواثِيقِ فهو عَهْدٌ،وكذلك كلُّ ما أَمَرَ الله به ونَهى عنه، وفي حديث الدُّعاءِ:"وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما استَطَعْتُ"، أي: أنا مُقِيمٌ على ما عاهَدْتُك عليه من الإيمان بك، والإقرار بوَحْدانيَّتِك، لا أزول عنه، واستثنى بقوله: ما استَطَعْتُ، مَوْضِع القَدَرِ السابقِ في أمره، أي: إنْ كان قد جرى القضاءُ أنْ أنْقُضَ العهدَ يوماً ما، فإني أُخْلِدُ عند ذلك إلى التَّنَصُّلِ والاعتذار لعدم الاستطاعة في دفع ما قضيته عليّ. والعَهْدُ: الوصية. والعهد أيضاً: الوفاء، وفي التنزيل: ﴿رَٰعُونَ﴾ [الأعراف/١٠٢]الآية، أي: من وفاء، وفي الحديث: "إن حُسن العهد من الإيمان"[2].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾ الرعي: هو القيام علي إصلاح ما يتولاه الراعي من كل شيء، والرعي: مصدر رَعَى الكَلأ ونحوَه يَرْعى رَعْياً. والراعِي: يَرْعى الماشيةَ، أي: يَحوطُها ويحفظُها، وراعي الماشيةِ:حافظُها. والراعِي: الوالي، والرَّعِيَّة: العامَّة، ورَعَى الأَمِيرُ رَعِيَّته رِعايةً، ورَعاه يَرْعاه رَعْياً ورِعايَةً:حَفِظَه.وكلّ مَنْ وَلِيَ أَمرَ قومٍ فهو: راعِيهم، وهُم رَعِيَّته، فعيلة بمعنى مفعول،وقد استرعاهُ إيَّاهم استَحْفَظَه واسْتَرْعَيْته الشيءَ فَرَعاه، وفي المثل:"مَن استرعى الذئبَ فقد ظَلَمَ"، أي: مَنِ ائتَمَنَ خائناً فقد وضع الأمانة في غير موْضِعِها، وراعَى أَمرهَ:حَفِظَه وتَرَقَّبَه، والمُراعاةُ: المحافَظة والإبْقاءُ على الشيءِ، والإرْعاء: الإبْقاء، وفي حديث:" كُلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُم مسؤول عن رعيَّتِهِ"، أي: حافِظٌ مؤْتَمَنٌ، والرَّعِيَّةُ: كل من شَمِلَه حِفْظُ الراعي ونَظَرهُ[3].

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة(أمن).

(٢) المصدر: السابق مادة(عهد).

(٣) ينظر: المصدر السابق مادة(رعي).

لقد أثنى المولى عز وجل على عباده المؤمنين بهذه الصفة الجليلة، فأشار بأنهم يحافظون على ما ائتمنوا عليه من حقوق وواجبات، سواء كانت متعلقة بالحق أم بالخلق، كما أنهم يوفون بالعهود التي بينهم وبين الخالق، والتي بينهم وبين المخلوقين، ونلحظ أن هذه الصفة قد جاءت بعد المدح بكمال العفة وحفظ الفروج؛ وذلك لأن بينهما علاقة وثيقة؛ حيث إن حفظ الفروج هو نوع من أنواع الأمانة، ولما كان ذلك يُعَدُّ:"من الأمانات العظيمة، أتبعه عمومها فقال: ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ أي: لفروجهم وغيرها، سواء كانت بينهم وبين الله كالصلاة والصيام وغيرهما من العبادات الواجبة، أم بينهم وبين الخلق كالودائع والبضائع،أم في المعاني الباطنة كالإخلاص والصدق، فعلى العبد الوفاء بجميعها.ولما كان العهد من أعظم الأمانات، تلاها به تنبيهاً على عظمته فقال: ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: الحافظون بالقيام والرعاية والإصلاح"[1].

وإذا كانت صفة الأمانة بينها وبين ما قبلها علاقة ارتباط وثيقة من جهة، فإن بينها وبين طهارة البيوت في سورة النور التحاماً قوّياً من جهة أخرى؛ حيث إن حفظ أسرار البيوت، ومراعاة آدابها،وإشاعة حسن الظن بالآخرين، كل ذلك وغيره تحتويه فضيلة الأمانة، مما يدعم القول بالصلة القوية بين السورتين.

وهذه الصفة تعد من الأهمية بمكان؛ حيث إن الأمانة والعهد يندرج تحتهما" كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به، والأمانة أعم من العهد؛إذ كل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد"[2].

ويقول الزمخشري:" سمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهداً... ويحتمل العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق، والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم"[3].

ومما يؤكد على عظم هذه الصفة، وعلو مكانتها بين الأوصاف المذكورة هنا للمفلحين، أنها تعم وتشمل كافة العبادات والواجبات التي لم يرد لها ذكر في هذه

---

(١) نظم الدرر ٥ / ١٨٤،وانظر: التفسير الكبير٢٣/ ٧١، والسراج المنير٢/ ٦٣١.

(٢) تفسير القرطبي١٢/ ١٠٨، وانظر: تفسير الثعالبي٣/ ٩٢،والمحرر الوجيز٤/ ١٣٧.

(٣) الكشاف ٣/ ١٨٠.

الأوصاف كالصوم والحج، إذاً فهذه الصفة "تأتي على جميع الواجبات من الأفعال والتروك"[1].

إن المحافظة على الأمانات والعهود لا يحققها إلا من رسخت فيه صفة الإيمان؛ لأن الإيمان التزام بالصلاة، التزام بالزكاة،التزام بحفظ الفروج، التزام بحفظ الأمانة والعهود، إنه التزام في كل شيء، التزام مع الخالق والتزام مع المخلوق،كما أن القيام بحفظ الأمانة، وعدم التفريط فيها،عُدّ من شعب الإيمان، وأسباب الفلاح؛لأن الأمانة"تكون غالباً من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها وبأن يجحدها ربها، ولكون دفعها في الغالب عريا عن الإشهاد تبعث محبتها الأمين على التمسك بها وعدم ردها؛ فلذلك جعل الله ردها من شعب الإيمان"[2].وإلى جانب حفظ الأمانة، كان الوفاء بالعهد آية على سمو النفس، وعظم منزلتها،فضلاً عن اعتباره في حصول الفلاح؛ لأن الوفاء بالعهد"من أعظم خلق ـ الإنسان ـ الكريم؛ لدلالته على شرف النفس وقوة العزيمة، فإن المرائين قد يلتزم كل منهما للآخر عملاً عظيماً، فيصادف أن يتوجه الوفاء بذلك الالتزام على أحدهما، فيصعب عليه أن يتجشم عملاً لنفع غيره بدون مقابل ينتفع به هو، فتسول له نفسه الختر بالعهد شحاً أو خوراً في العزيمة؛ فلذلك كان الوفاء بالعهد علامة على عظم النفس"[3].

وبالتأمل في نظم تلك الآية الكريمة نجد أن الأمانة قد جاءت جمعاً، وأن العهد قد أتى مفرداً، كما أن الأمانة قدمت على العهد، وأنهما معاً قدما على ﴿رَٰعُونَ﴾ فما السبب في ذلك؟

أقول: إن الأمانة نظراً لأنها تعددت وتنوعت، وتعدد القائمون على حفظها جاءت جمعاً دون العهد، يقول الآلوسي:" وجمعت الأمانة دون العهد؛ لأنها متنوعة متعددة جدًّا

---

(٤) التفسير الكبير٢٣/٧٢، وانظر: اللباب في علوم الكتاب ١٤/١٧٥.

(١) التحرير والتنوير١٨/١٤.

(٢) المصدر السابق١٨/١٥،والختر: الضعف والفساد والغدر: يقال: خترت نفسه خترا وختورا: غثت وفسدت، وفلانا غدر به أقبح الغدر، فهو خاتر وختير وختور وختار، وفي الحديث (ما ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم العدو) اللسان (ختر).

بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك، ولا كذلك العهد"[1].ويقول أيضاً:" وكأنه لكثرة الأمانة جمعت ولم يجمع العهد، قيل:إيذاناً بأنه ليس كالأمانة كثرة، وقيل:لأنه مصدر، ويدل على كثرة الأمانة ما روى الكلبي: كل أحد مؤتمن على ما افترض عليه من العقائد والأقوال والأحوال والأفعال، ومن الحقوق في الأموال، وحقوق الأهل والعيال، وسائر الأقارب والمملوكين والجار وسائر المسلمين. وقال السدي: إن حقوق الشرع كلها أمانات، قد قبلها المؤمن وضمن أداءها بقبول الإيمان. وقيل: كل ما أعطاه الله تعالى للعبد من الأعضاء وغيرها أمانة عنده، فمن استعمل ذلك في غير ما أعطاه لأجله، وأذن سبحانه له به، فقد خان الأمانة"[2].

أما تقديمها على العهد، ففيه دلالة على الاهتمام بشأنها، والعناية بأمرها،يؤكد ذلك هذا الوعيد الشديد الذي فيه ردع وزجر لمن لا يتحلى بصفة الأمانة، يقول صلى الله عليه وسلم:"لا إيمان، لمن لا أمانة له"، إن هذا الحديث . كما هو واضح . قد حصر الإيمان كله في التحلي بصفة الأمانة، وبالتالي فهو ينفي الإيمان عمن يفرط فيها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظم منزلتها،وجلالة قدرها بالنسبة للإيمان. وجاء عطف العهد على الأمانة، من باب عطف الخاص على العام،لأن الأمانة . كما أشرت آنفاً . أعم من العهد،إذ كل عهد فهو أمانة.

ثم في تقديمهما معاً على ﴿رَٰعُونَ﴾ ،مما يدل على أنهما من الأهمية بمكان،نظراً لأنهما . كما ذكرنا من قبل . يندرج تحتهما كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، ومن ثَمَّ يجب مراعاتهما والاهتمام بهما، وعدم التقصير فيهما،فهما الأولى بالرعاية والتعظيم.

ثم انظر إلى البيان القرآني وهو يعطي في كل صفة . كما أشرت من قبل . شيئاً ما يرقّي تلك الصفة عند هؤلاء المؤمنين، إن هذا الأمر يتضح جلياً في اختيار كلمة ﴿رَٰعُونَ﴾ لتكون مع الأمانة والعهد دون غيرها، فلم يقل مثلا:"حافظون،أو ضابطون،أو حريصون، أو غير ذلك.فلِمَ آثر القرآن التعبير بها دون غيرها؟.

---

(٣) روح المعاني مجلد ٥ / ١١/١٨.

(١) المرجع السابق مجلد ٧ / ٦٣/٢٩.

إن كلمة الرعاية فيها إحاطة وشمول، والقرآن الكريم لم يرد أن يمدحهم بحفظهم للأمانة والعهد فقط، بل أكثر من ذلك، وهو أنهم يقومون بمراعاتهما وإصلاحهما، وكل ما من شأنه أن يساعد على ذلك؛لأن الرعي"ليس مجرد الحفظ؛ بل هو الحفظ والإصلاح والعناية بالأمر وتولي شأنه، وتفقد أحواله وما إلى ذلك. وهذا ما يتعلق بالأمانة كثيراً، وليس مجرد الحفظ كافياً، فمن ائتمن عند غيره أهله وصغاره، فلا بد من أن يتفقد أمورهم، وينظر في أحوالهم وحاجاتهم، علاوة على حفظهم، وكذلك من تولى أمر الرعية، ونحوه من اؤتمن على زرع أو ضرع، وكذلك ما حمّله الله للإنسان من أمر الشرع، فإنه يحتاج إلى قيام به وتحرٍّ للحق فيما يُرضي الله عز وجل، وما إلى ذلك من أمور لا يصلح معها مجرد الحفظ، ومن ثم كانت الرعاية أشمل وأعم، واختيارها أنسب من غيرها"[1].

أرأيت كيف أن نظم تلك الآية الكريمة قد تعاضدت عناصره في تجلية هذه الصفة، وتأكيد نسبتها، وإفادة ثباتها واستمرارها لدى هؤلاء الممدوحين؟. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل دلالة واضحة على أن ألفاظ القرآن الكريم" ألفاظ مختارة دقيقة موحية، قد اتسقت في جملها،واستقرت في مكانها، وكونت مع زميلاتها آيات تؤثر في نفس سامعها، بقوة نسجها، وجمال موسيقاها، قد قدّم فيها ما قدّم، وأخر ما أخر، وذكر ما ذكر، وحذف ما حذف، واستعملت صيغة دون أخرى، لاعتبارات نفسية دقيقة"[2].

الآية التاسعة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾

في هذه الآية الكريمة يختم البيان القرآني هذه الأوصاف الحميدة بخير الختام وما أعظمه! إنه مسك الختام وما أجمله! إنها الصلاة، إنها عماد الدين كله، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.ويلحظ هنا أن هذا الختام قد جاء عقب الحديث عن المدح برعاية الأمانة والوفاء بالعهد، فما العلاقة بينهما؟.

إن العلاقة بين المحافظة على الأمانة والعهد، والمحافظة على الصلاة علاقة جلية واضحة؛ لأن الصلاة لمّا كانت" أجلّ ما عهد فيه من أمر الدين وآكد، وهي من الأمور الخفية

---

(١) لمسات بيانية ص١٤٩.

(٢) من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوي ص٤٠١.ط: دار نهضة مصر. القاهرة.ط:١٩٧٨م.

التي وقع الائتمان عليها، لما خفف الله فيها على هذه الأمة باتساع زمانها ومكانها، قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ التي وصفوا بالخشوع فيها ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أي يجددون تعهدها بغاية جدهم، ولا يتركون شيئاً من مفروضاتها ولا مسنوناتها، ويجتهدون في كمالاتها"[1].

لقد أشرت من قبل إلى أن صفات هؤلاء المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس، قد ورد ذكرها كلها بين فريضة الصلاة، ففي بدايتها قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾، وفي نهايتها قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾، فختمت الصفات بالصلاة، كما بدأت بالصلاة، وأومأت إلى أن هناك علاقة وثيقة وقوّية بين هذه الصفة الأم التي هي الصلاة، وبين تلك الصفات الأخرى، مما يوحي بأن ما ذكر من صفات هو في الحقيقة متمخض من الصلاة؛ حيث إن الانطلاق إلى التحلي بتلك الصفات ينبع من أداء حق الله أولاً في الصلاة، إن هذا الانطلاق من الصلاة كأنه يومئ إلى أنه لا فرق بين حقوق العباد وحقوق الله، وأن المحافظة على حقوق العباد تتولد من المحافظة على حقوق الله، وأن من لم يراع حقوق الله لا يراعي حقوق العباد، ومن لم يراع حقوق العباد لا يراعي حقوق الله،إذاً فالمحافظة على تلك الحقوق مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمحافظة على الصلاة.

كما أن ذكر فريضة الصلاة في أول الصفات وفي آخرها، يدل دلالة واضحة على عظيم فضلها، وعلو مكانتها بين أركان الإسلام،يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن"[2].

ومما ينبغي الإشارة إليه أن ذكر الصلاة مرتين هنا، لا يعد من باب التكرير، وذلك لاختلاف العبارتين والاعتبارين،فالخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها، يقول أبو حيان:"والخشوع والمحافظة متغايران، فبدأ أولاً بالخشوع وهو: الجامع للمراقبة القلبية والتذلل بالأفعال البدنية، وثنّى بالمحافظة وهي: تأديتها في وقتها بشروطها من طهارة

(١) نظم الدرر ٥ / ١٨٤.

(٢) سنن ابن ماجه: حديث رقم (٢٧٧).

المصلي وملبوسه ومكانه، وأداء أركانها على أحسن هيئاتها، ويكون ذلك دأبه في كل وقت"[1].

كما أن ذكر الصلاة أولاً جاء تبعاً للخشوع، ولم يكن هناك حديث صريح عنها، فجاء التنصيص عليها بعد ذلك صراحة، حتى يجمع لهما الثناء بالأمرين معاً: الخشوع والمحافظة،بالإضافة إلى الإشارة إلى أنه لا يتم المدح ولا يكمل إلا باجتماع الأمرين معاً، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه - على حد تعبير صاحب كتاب: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - مذموم ناقص[2].

يقول صاحب (التحرير والتنوير) مبيناً سر مجيء قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ بعد قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ : " إنما ذكر هذا مع ما تقدم؛ لأن ذكر الصلاة هنالك جاء تبعا للخشوع، فأريد ختم صفات مدحهم بصفة محافظتهم على الصلوات؛ ليكون لهذه الخصلة كمال الاستقرار في الذهن؛ لأنها آخر ما قرع السمع من هذه الصفات، وقد حصل بذلك تكرير ذكر الصلاة تنويهاً بها، ورداً للعجز على الصدر؛ تحسيناً للكلام الذي ذكرت فيه تلك الصفات؛ لتزداد النفس قبولاً لسماعها ووعيها، فتتأسى بها"[3].

وهنا تساؤل يطرح نفسه وهو: إذا كانت الآيتان تتحدثان عن شيء واحد وهو الصلاة، فلِم فصل القرآن بينهما ولم يجمعهما في موضع واحد، فلم يقل مثلا:" والذين هم على صلاتهم محافظون خاشعون - أو والذين هم على صلاتهم يحافظون ويخشعون"؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أقول: إن القرآن الكريم قد فصل بين الآيتين مع أنهما يتعلقان بأمر واحد وهو الصلاة؛ "للإيذان بأن كلاً منهما فضيلة مستقلة على حيالها، ولو قُرنا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة"[4].

---

(٣) البحر المحيط٦ /٣٦٨، وانظر: التفسير الكبير٢٣/٧٢، والسراج المنير٢/٤٥١.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن السعدي١/٥٤٨.

(٢) التحرير والتنوير١٨/١٦.

(٣) تفسير أبي السعود مجلد٢ /٦ /١٢٥.

وإذا أنعمنا النظر في نظم الآية الكريمة لوجدنا أن كلمة" الصلاة" قد جاءت فيه جمعاً﴿صَلَوَٰتِهِمۡ﴾ مع أنها جاءت في الآية الأولى مفردة﴿صَلَاتِهِمۡ﴾، هذا من ناحية، ومن ناحية أجرى لحظ أن فاصلة هذه الآية الأخيرة قد جاء فعلاً﴿يُحَافِظُونَ﴾، مع أن فاصلة باقي الأوصاف السابقة قد جاءت اسماً: ﴿خَٰشِعُونَ ٱلۡمُعۡرِضُونَ ٱلۡفَٰعِلُونَ ...﴾إلى آخره، فما دلالة ذلك؟.

أقول: أولاً هناك قراءة بالإفراد﴿صَلَاتِهِمۡ﴾ وهى منسوبة لحمزة والكسائي[1]، وعليها يكون الأمر منظوراً فيه إلى جنس الصلاة، واسم الجنس ـ كما هو معلوم ـ يقع على الواحد وعلى الأكثر،فهو إذاً في معنى الجمع.أما على قراءة الجمع وهي قراءة الجمهور ﴿صَلَوَٰتِهِمۡ﴾، فقد جُمعت مع المحافظة عليها؛ للدلالة على أنه يجب المحافظة على جميع أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل، أما ورودها مفردة﴿صَلَاتِهِمۡ﴾ مع الخشوع؛ فللإشارة إلى أنه لابد من وجوده مع أي نوع من الصلاة، فرضاً كانت أم نفلاً.يقول الزمخشري:وحدّت الصلاة"أولاً؛ ليفاد الخشوع في جنس الصلاة، أي صلاة كانت، وجمعت آخراً؛ لتفاد المحافظة على أعدادها: وهي الصلوات الخمس، والوتر، والسنن المرتبة مع كل صلاة، وصلاة الجمعة، والعيدين، والجنازة، والاستسقاء، والكسوف والخسوف، وصلاة الضحى، والتهجد، وصلاة التسبيح، وصلاة الحاجة، وغيرها من النوافل"[2].

أما عن السر وراء التعبير بالفعل في فاصلة هذه الآية دون غيرها، فإن القرآن الكريم لما جمع كلمة الصلاة ﴿صَلَوَٰتِهِمۡ﴾ ناسب ذلك التعبير بصيغة الفعل﴿يُحَافِظُونَ﴾ الذي يفيد التجدد والحدوث، حيث إن الذي أُمر بالمحافظة عليها ليست صلاة واحدة، وإنما أكثر من صلاة،كما أنها لا تؤدى مرة واحدة بل يتكرر أداؤها، ومن ثَمَّ فإن كل صلاة تحتاج إلى أن يتجدد معها الحفظ، فكلما تجددت صلاة تجدد الحفظ معها، أما باقي الصفات فجاءت بالاسم؛ لأن المقصود هو الإشارة إلى أن هذه الصفات ثابتة لديهم لا ينفكون عنها، على سبيل الدوام والاستمرار.

---

(١) ينظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه١/٢٥٥، وانظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري٢/٣٦٧، وتفسير القرطبي١٢/١٠٧.

(٢) الكشاف٣/١٨١،وانظر: البحر المحيط٦/٣٦٨، والسراج المنير٢/٤٥٢.

وفي ختام الحديث عن هذه الصفات للمؤمنين، ينبغي أن أشير أن هذه الصفات ليست هي كل الصفات التي يتحلى بها المؤمنون، فلهم صفات أخرى كثيرة منها: الصوم،والحج، والصبر،والشكر،والعفو إلى آخره، ولكن اقتصر الحديث على هذه الصفات المذكورة؛ لأن ذلك مرتبط بسياق هذه السورة فقط، وكل مقام يقتضي صفات معينة يدور الحديث حولها ولا يتعداها.

كما أننا إذا تأملنا الصفات المذكورة للمفلحين في هذه السورة، لوجدناها قد أتت على أصول التقوى الشرعية، ورتبت ترتيباً دقيقاً محكماً من لدن الحكيم الخبير، ترتيباً يأخذ بعضه بحجز بعض، فبدأت بالإيمان وهو: أساس التقوى لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد/١٧]،ثم ذكرت الصلاة وهي: عماد التقوى، والتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، لما فيها من تكرر استحضار الوقوف بين يدي الله ومناجاته،ثم ذكرت صفة الخشوع وهو: تمام الطاعة؛ لأن المرء قد يعمل الطاعة للخروج من عهدة التكليف غير مستحضر خشوعاً لربه الذي كلفه بالأعمال الصالحة، فإذا تخلق المؤمن بالخشوع اشتدت مراقبته ربه فامتثل واجتنب، فهذان من أعمال القلب،ثم ذكرت صفة الإعراض عن اللغو، واللغو: من سوء الخلق المتعلق ـ غالباً ـ باللسان الذي يعسر إمساكه، فإذا تخلق المؤمن بالإعراض عنه فقد سهل عليه ما هو دون ذلك، وفي الإعراض عن اللغو: خلق للسمع أيضاً، ثم ذكرت صفة إعطاء الصدقات، وفي ذلك مقاومة لداء الشح:﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر/٩]، ثم ذكرت صفة حفظ الفرج، وفي ذلك خلق لمقاومة اطراد الشهوة الغريزية بتعديلها وضبطها، والترفع بها عن حضيض مشابهة البهائم، فمن تخلق بذلك فقد صار كبح الشهوة ملكة له وخلقاً، ثم ذكرت صفة أداء الأمانة وهو: مظهر للإنصاف وإعطاء ذي الحق حقه، ومغالبة شهوة النفس لأمتعة الدنيا، ثم ذكرت صفة الوفاء بالعهد وهو: مظهر لخلق العدل في المعاملة، والإنصاف من النفس بأن يبذل لأخيه ما يحب لنفسه من الوفاء، ثم ذكرت صفة المحافظة على الصلوات وهي: التخلق بالعناية، والوقوف عند الحدود والمواقيت، وذلك يجعل انتظام أمر الحياتين ملكة وخلقاً راسخاً.

وإذا تأملت هذه الخصال وجدتها ترجع إلى حفظ ما من شأن النفوس إهماله، مثل: الصلاة، والخشوع، وترك اللغو، وحفظ الفرج، وحفظ العهد، وإلى بذل ما من شأن

النفوس إمساكه، مثل: الصدقة، وأداء الأمانة. فكان في مجموع ذلك أعمال ملكتي: الفعل والترك في المهمات، وهما منبع الأخلاق الفاضلة لمن تتبعها[1].

الآية العاشرة، والحادية عشرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

بعد الحديث عن الأعمال الصالحة التي سارع هؤلاء المؤمنون بتنفيذها، والتزموا بكل بنودها، نأتي هنا إلى الحديث عن النتيجة التي كانوا يسعون إليها من وراء هذه الأعمال، إنها السلعة الغالية، إنها الجنة التي طالما اشتاقوا إليها. نأتي إلى الحصاد الذي كان ينتظره هؤلاء الذين كانوا يسارعون إلى الطاعات، ويسابقون إلى القربات، بعد التعب والعناء، والتغلب على النفس وشهواتها. نأتي إلى الحديث عن تفصيل الأجر والثواب الذي بُشّر به هؤلاء المؤمنون، عندما جاء تصدير الآيات بإثبات الفوز والفلاح لمن يقوم بهذه الطاعات، هنا يأتي الكشف والإفصاح عن هذا الجزاء الذي أعد لهم، إنه النعيم الدائم الذي ليس بعده نعيم، نعيم لا يرضون عنه بديلا، ولا يبغون عنه حولا، إنه نعيم شامل لا يمكن أن يحيط به الوصف كما قال عنه المولى عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة/١٧]، وكما قال عنه الصادق المصدوق ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الله عز وجل "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[2].إنه الجزاء الذي جاء على قدر العمل،و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن/٦٠]، فبعدما حققوا ما طلب منهم من:الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو،وأدائهم للزكاة، وحفظهم للفروج، وأدائهم للأمانات ووفائهم بالعهود، ومحافظتهم على الصلوات، بعد كل هذا ـ وكما قيل: من كانت له بداية محرقة، كانت له نهاية مشرقة ـ جاء الحديث عن تعظيم ثوابهم وتفخيمه، وأنهم كما ارتقوا في أعمالهم، وحلوا من الطاعات أعلاها وذروتها، فإنهم الآن سيكونون في أرقى المنازل، إنهم الوارثون الذين لا يرثون أي مكان، إنما يرثون الفردوس، ولا يرثونها فترة مؤقتة ثم يغادرونها، إنما هم في الجنة مخلدون، فهم في نعيم دائم لا ينقطع أبداً.يقول الإمام

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١٨/١٦.

(٢) سنن الترمذي ٥/٣٤٦ حديث رقم(٣١٩٧).

البقاعي:" ولما ذكر مجموع هذه الأوصاف العظيمة، فخم جزاءهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: البالغون من الإحسان أعلى مكان ﴿هُمُ﴾ خاصة ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي: المستحقون لهذا الوصف، المشعر ببقائهم بعد أعدائهم، فيرثون دار الله لقربهم منه، واختصاصهم به، بعد إرثهم أرض الدنيا التي قارعوا عليها على قلّتهم وضعفهم ـ أعداءَنا الكفار على كثرتهم وقوتهم، فكانت العاقبة فيها لهم... ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ التي هي أعلى الجنة، وهي في الأصل: البستان العظيم الواسع، يجمع محاسن النبات والأشجار من العنب وما ضاهاه من كل ما يكون في البساتين والأودية التي تجمع ضروباً من النبت، فيحوزون منها بعد البعث ما أعدّ الله لهم فيها من المنازل، وما كان أعدّ للكفار لو آمنوا، أو لم يخرجوا بخروج أبويهم من الجنة ﴿هُمُ﴾ خاصة ﴿فِيهَا﴾ أي: لا في غيرها ﴿خَٰلِدُونَ﴾ [1].

وبالتأمل في نظم هذا الجزاء، نجد أنه يتناغم مع عظمه وفخامته، يؤكد ذلك أن البيان القرآني قد بدأ التعبير عن هذا الجزاء بالاسم الظاهر، اسم الإشارة، وكان يكفي في هذا المقام الإضمار، ولكنه آثر التعبير بالاسم الظاهر؛لزيادة تقرير الخبر في ذهن السامع، وللإشعار بامتياز هؤلاء المتصفين بالصفات الجليلة المذكورة بهذا الإرث العظيم دون غيرهم، وتنزيلهم منزلة المشار إليه حساً، وأنهم جديرون بما سيذكر بعد اسم الإشارة؛ حيث إن" اسم الإشارة بطبيعة دلالته يحدد المراد منه تحديداً ظاهراً، ويميزه تمييزاً كاشفاً، وهذا التحديد قد يكون مقصداً مهماً للمتكلم؛ لأنه حين يكون معنياً بالحكم على المسند إليه بخبر ما، فإن تمييز المسند إليه تمييزاً واضحاً يمنح الخبر مزيداً من القوة والتقرير"[2].ثم نجد اختيار اسم الإشارة الذي يدل على البعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولم يقل(هؤلاء)؛"للإيذان بعلو طبقتهم، وبُعْدِ درجتهم في الفضل والشرف"[3].ثم الإتيان بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ والتعريف في الخبر بأل ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ ؛ لإفادة تقوية الحكم وتأكيده، ولبيان أنهم المستحقون لوراثة الفردوس الأعلى في الجنة دون غيرهم، أو كما قال

---

(١) نظم الدرر ٥ / ١٨٥.

(٢) خصائص التراكيب ص١٥٣.

(٣) تفسير أبي السعود مجلد٢ / ٦ / ١٢٥.

الزمخشري: هم الأحقّاء بأن يسمّوا ورّاثاً دون من عداهم.ففيها قصر الوراثة على المؤمنين، قصر صفة على موصوف، فهم وحدهم يرثون الجنة لا غيرهم.

ثم انظر إلى هذا التصوير الدقيق المتمثل في استعارة كلمة ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ للدلالة على استحقاقهم للفردوس بأعمالهم، حسبما يقتضيه الوعد الكريم من رب العالمين، حيث شُبه ذلك باستحقاق الوارث لإرثه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمكينهم من هذا الجزاء، وأنه متحقق لا محالة، فكما أن الوارث لابد من استحقاقه لإرثه فلا ينفك عنه، فكذلك استحقاق هؤلاء لهذا الثواب، وكان اصطفاء كلمة الإرث بالذات للدلالة على هذا الاستحقاق الثابت، لأن الإرث يعد" أقوى سببٍ يقع في ملك الإنسان، ولا يتعقبه ردّ ولا فسخ ولا إقالة ولا نقض"[1].وقال الرازي:"إنما سُمِّيَ ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث، لأن انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث، أو أن الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام، فإذا انتقلت إلى أولاده صار ذلك شبيها بالميراث"[2]. وقيل: إن التعبير هنا على سبيل الحقيقة، حيث إن المؤمن يرث منزل الكافر في الجنة الذي أعد له لو كان قد آمن، فعن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾[3].

ثم انظر إلى تفصيل ما يرثونه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ـ والفردوس: اسم للجنة،أو اسم لطبقتها العليا، وهي كلمة: رومية عرّبت، قاله مجاهد، وقيل: فارسية عرّبت، وقيل: حبشية، وقيل: عربية، وهو الكرم قاله الضحاك.وثبت في الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن"[4]. ومعنى:(أوسط الجنة) أي: أن الفردوس في وسط الجنان في العرض،(وأعلى الجنة) يعني: في الارتفاع ـ والذي جاء بعد الإجمال في الآية السابقة، وما يوحي به من

---

(١) تفسير روح البيان٦ /٦٨.

(٢) التفسير الكبير٢٣/٧٢.

(٣) سنن ابن ماجه حديث رقم(٤٣٤١).

(٤) صحيح البخاري حديث رقم (٢٧٩٠).

تمكين الجزاء في ذهن السامع؛ حيث إنه بذلك يكون قد ذكر مرتين، مرة مجملاً، وأخرى مفصلاً، كما أن فيه تشويقاً للمخاطب، فبعد إبهامه في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يجعله يترقب إلى معرفة ما يأتي بعده، فعندما يأتي التوضيح في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ عند ذلك يستقر المعنى في ذهنه، بالإضافة إلى ذلك فإن فيه تقييداً للشيء الذي يرثونه بعدما كان مطلقاً غير محدد؛ مما يؤدي إلى تركيز الذهن فيه للإحاطة بما يحتويه.ثم تأمل دلالة هذه الجملة ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهي تفيد التقرير للجملة السابقة، وتشير إلى أن هناك اختلافاً بين الإرث في الدنيا، وإرث هؤلاء للفردوس، فإرث الدنيا ينفد ولا يبقى، أما إرثهم للفردوس فهو باقٍ دائم لا ينقطع،ثم قوّى هذا البقاء والخلود في الفردوس، وأكده بالجملة الاسمية وبتقديم الجار والمجرور﴿فِيهَا﴾ ـ وأنث الضمير على تأويله بالجنة . واختيار التعبير بالاسم ﴿خَٰلِدُونَ﴾ دون الفعل" يخلدون"، كل هذه الأمور تعاونت على تأكيد أنهم مخلدون فيها لا في غيرها، وأنهم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

أرأيت كيف تعاضدت عناصر هذا النظم الكريم في الكشف عن هذا الجزاء العظيم، وتفخيم شأنه، وارتفاع قدره، والحث على الجد في العبادة، والترغيب في كثرة الطاعة، والإخلاص فيها للوصول إلي هذا النعيم؟! فسبحان من أحكم كلامه، وأبدع بيانه!

هذا، وقد جاء في تلك الأوصاف من المحسنات البديعية بالإضافة إلى ما ذكر من: براعة الاستهلال، ورد العجز على الصدر، الجناس وذلك بين قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ ،وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ، وهناك أيضاً الطباق بين حرفي الجر (في)و(عن) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ، فـ"في" تدل على الفعل، و"عن" تدل على الترك،وأخيراً نجد الفاصلة، فعندما ننظر في فواصل تلك الآيات نلحظ أنها جاءت على نسق واحد وهو(الواو والنون) إلا في موضع واحد فقد جاء (بالياء والنون)وهو﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، وهذا الجرس الموسيقي الذي أحدثه اتفاق الفاصلة، كان له دور عظيم، وأثر نفسي جليل في الإنصات والانتباه لسماع هذه الصفات والإقبال عليها؛ حيث إنها تشعر" السامع والقارئ بالخشوع والهدوء النفسي الذي ينتج عن اتباع تلك الصفات الكريمة عن طريق الرنين الصوتي المتواتر، الذي أعطى

جرساً موسيقياً ساعد على تدبر المعاني والتفكر فيها؛ لاحتياج المسلم إليها، حتى يرتقي إلى مرتبة المؤمن الذي يتميز بتلك الصفات، وذلك في أحسن صورة يدل بها عليه؛ لأنه إلى الحفظ أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت"[1].

اللهم زينا بلباس المؤمنين المفلحين، واحشرنا في زمرة من صدّرت بذكرهم سورة المؤمنون، واجعلنا اللهم من الذين يرثون الفردوس، ويتنعمون بنعيمها، ويصلون إلى نسيمها، واحفظنا عن الأسباب المؤدية إلى النار وجحيمها، أجمعين.

أخيراً: وبعد الانتهاء من تحليل آيات صفات المؤمنين في هذه السورة، أستطيع أن أسجل أهم **السمات الأسلوبية، والظواهر البلاغية** التي انتظمت تلك الصفات، ومنها:

- التعبير باسم الموصول وتكراره.
- ضمير الفصل وتكراره.
- التعبير بصيغة اسم الفاعل وتكرارها.
- التعبير بصيغة الفعل أحياناً.
- التعبير باسم الإشارة.
- التفصيل بعد الإجمال.
- عطف العام على الخاص والعكس.
- التقديم والتأخير.
- القصر.
- اختيار الكلمات الدقيقة المناسبة للمقام.
- الترابط والانسجام بين الصفات بعضها وبعض.
- العلاقة القوية بين ما جاء في هذه السورة، والسورة التي قبلها من ناحية، وما بينها وبين السورة التي بعدها من ناحية أخرى.
- استخدام الألوان البيانية: كالاستعارة والكناية والتعريض.
- براعة الاستهلال.

---

(١) من بلاغة سورة المؤمنون د/ عائشة حسين فريد ص٧٣،ط: القاهرة.ط: الأولى: ٢٠٠٠م.

- الطباق.
- الجناس.
- رد العجز على الصدر.
- اختيار الفاصلة الملائمة للغرض وتكرارها.

* * *

المبحث الثاني

التحليل البلاغي لآيات سورة المعارج

الوقوف مع الآيات

يقول الله تعالى: مخبراً في أولها عن طبيعة الإنسان، وما جبل عليه من الحرص الشديد على جمع حطام الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

اختلف في المقصود من الإنسان هنا فقيل:إنه الكافر، وقيل:إنه عام؛ لأنه استثنى منه الجمع ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، وهذا يدل على أن المراد به جميع أفراد هذا الجنس، كقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق /٦]، أي:جنس الإنسان. والهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه، وقد هَلِع (بالكسر) يهلع فهو هلع وهلوع، على التكثير. والجزع: الخوف.وقيل: تفسير الهلع ما أتى بعده في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، أي: هو الذي إذا ناله شر أظهر شدّة الجزع، ،وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس، وقد فسره بعضهم: بالشره، وبعضهم: بالضجر، وبعضهم: بالشح، وبعضهم: بالجوع، وبعضهم: بالجبن عند اللقاء، لكن يرى ابن عاشور أن هذه المعاني كلها هي آثار لصفة الهلع، وليست تفسيراً دقيقاً له، ثم قال:"والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة "الهلع": أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك والإشفاق منه، وأما الجزع فمن آثار الهلع"[1].

إن القرآن الكريم في هذه الآيات أراد أن يكشف لنا عن طبيعة الإنسان؛ فأشار إلى أن من طبيعته الهلع، وهي صفة غير محمودة؛ حيث إنه يرضى عند الموجود، ويسخط عند المفقود، وعندما يأتيه الخير يشح به ويمنعه، ولا ينفق منه شيئاً، وعندما يبتلى بمرض أو فقر لا يصبر، ولا يرضى بقضاء الله وقدره، إنه في السراء يمنع، وفي الضراء يجزع.وإذا كانت هذه هي طبيعته؛ فعليه أن يخالفها، ويوافق ما يأمره به ربه،ثم ذكر سبحانه الدواء لهذا الداء الخطير،أعني: داء الهلع؛ فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فاستثنى من العموم أهل التوحيد، كأنه قال: إذا كان عامة الناس قد طُبِعوا على الصفات الذميمة، ومنها الهلع

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٥٥.

والجزع والمنع، فإن المصلين الذين اتصفوا بصفات ثمانٍ ليسوا منهم، لأنهم هجروا تلك الصفات القبيحة، واتصفوا بالصفات الحميدة، يقول أبو السعود: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء للمتصفين بالنعوت الجليلة الآتية، من المطبوعين على القبائح الماضية، لإنباء نعوتهم عن الاستغراق في طاعة الحق، والإشفاق على الخلق، والإيمان بالجزاء، والخوف من العقوبة، وكسر الشهوة، وإيثار الآجل على العاجل، على خلاف القبائح المذكورة الناشئة من الانهماك في حب العاجل، وقِصَر النظر عليه"[1].

وبالتأمل في نظم تلك الآيات نجد أنها بدأت بالتأكيد ﴿إِنَّ﴾، وذلك للإشارة إلى غرابة الخبر،ولفت الأنظار إليه، وهو بيان موقف الإنسان عندما يأتيه الخير خصوصاً؛ لأن حالته مع الشر وعدم إمساكه لنفسه عندما يعتريها ما يؤلمها هذا أمر طبيعي، لكن غير الطبيعي هو منعه الخير عن الناس، وهذا هو موطن الغرابة، ثم مجيء الفعل الماضي مبنياً للمجهول﴿خُلِقَ﴾ ،للتأكيد على أن التخلق بهذه الصفة أمر مذموم، بدليل أن الله عز وجل لم يسنده لنفسه فلم يقل:"خلق الله الإنسان هلوعا، أو خلقنا الإنسان هلوعاً"،كما صرح بذلك في مواطن أخرى، وهي مواطن خالية من الذم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق/١٦] و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق/٣٨]، و﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين/٤]، فضلاً عن أن بناءه للمجهول يشير من ناحية أخرى إلى أن هذه الصفة ليست من الصفات المتأصلة، والراسخة في طبيعة الإنسان، بدليل أن المؤمنين استطاعوا التغلب عليها بطبيعة إيمانهم التي تجعلهم يصبرون عند الضراء، ويشكرون عند السراء، ولو كانت متمكنة راسخة في طبيعة الإنسان ما استطاع أحد التغلب عليها، يقول الرازي: إن"قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ نظير لقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء/٣٧]، لكن ليس المراد أنه مخلوق على هذا الوصف، والدليل عليه أن الله تعالى ذمه عليه، والله تعالى لا يذم فعله، ولأنه تعالى استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم في ترك هذه الخصلة المذمومة، ولو كانت هذه الخصلة ضرورية حاصلة بخلق الله تعالى، لما قدروا على تركها، واعلم أن "الهلع" لفظ واقع على أمرين: أحدهما: الحالة النفسانية التي لأجلها يقدم

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٣٢، وانظر: روح المعاني ٢٩/ ٦٢.

الإنسان على إظهار الجزع والتضرع، والثاني: تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية، أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى؛ لأن من خلقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه، ومن خُلق شجاعاً بطلاً لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه، بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها، والإقدام عليها، فهي أمور اختيارية،أما الحالة النفسانية التي هي الهلع في الحقيقة فهي مخلوقة على سبيل الاضطرار"[1].

ثم انظر إلى مجيء "أل" التي لاستغراق أفراد الجنس في هذه الكلمات: الإنسان، الشر، الخير، وما تدل عليه من إفادة الإحاطة والشمول،أي:أن الإنسان عامة إذا مسه شيء ما من جنس الشر أو الخير، فإنه يصاب بالهلع والجزع والمنع إلا من عصمه الله وحفظه،وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه، ثم نجد أن الشر قد جاء مقدّماً على الخير، مع أنه هو المقصود من الكلام؛ وذلك لأنه لما كان السياق يتحدث عن الصفات الذميمة عند البشر، كان من المناسب أن يأتي مقدماً على ما يوحي بوجود الخصال الحسنة، ثم نجد أيضا هذا التفصيل الذي تشوّق إليه السامع في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ والذي جاء بعد الإجمال في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ، ليثبّت هذا المعنى ويؤكده في ذهنه؛ لأنه بذلك يكون كأنه ذُكر مرتين، مرة عن طريق الإبهام، ومرة أخرى عن طريق التفسير والإيضاح؛ ولذا قال أحمد بن يحيى: (المعروف بثعلب)، قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسَّره الله، ولا يكون تفسير أبين من تفسيره، وهو الذي إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس[2].

ثم انظر إلى هذا الاستثناء ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ الذي ينقلنا إلى الحديث عن فريق آخر، جاء مقطعه في وسط الحديث عن فريق الكافرين وموقفهم من الآخرة، والمصير المؤلم الذي ينتظرهم؛ ليكون شعلة مضيئة في وسط هذا الظلام الدامس، إن حديث السورة كلها موصول عن الكفار وتكذيبهم باليوم الآخر، فبعد أن أنهى الحديث عن فريق

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/٦٤٥.

(٢) ينظر:اللباب في علوم الكتاب ١٩/٣٦٧.

الإيمان، عاد إلى الحديث مرة أخرى عن فريق الكفر فقال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج/٣٦] إلى نهاية السورة.

هذا المقطع ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ يعد استثناء منقطعاً ناشئاً عن الوعيد المُبتدأ من بداية قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ...﴾ [المعارج/١١]، والمعنى حينئذ على الاستدراك، والتقدير: لكن المصلين الموصوفين بكيت وكيت أولئك في جنات مكرمون، إذاً فجملة ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ جملة استئنافية استئنافاً بيانياً، جاءت لتكشف لنا عن أحوال المؤمنين ووعدهم في مقابلة أحوال الكافرين ووعيدهم.

ثم انظر إلى اختيار وصف المصلين ليعبر به عن الموصوفين بالصفات المذكورة في هذا السياق، فلم يقل مثلاً: "إلا المسلمين أو المؤمنين أو المتقين"، وأرى أن هناك عدة أمور كانت وراء التعبير بلفظ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ في هذا المقام:

الأول: السياق البعيد، ويتمثل في قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج/١٠].

الثاني: السياق القريب، متمثلاً في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ...﴾الآيات. إن سياق السورة يتحدث عن قطع الصلة بين البشر بعضهم وبعض، قطع الحميم عن الحميم، فهل هذه الصلة كذلك مع الله عز وجل؟.

إن السياق عندما صرح بنفي الصلة وقطعها بين الخلق بعضهم وبعض، يريد أن يشير إلى إثبات هذه الصلة بين الخالق والمؤمنين، وأنها صلة لا تنقطع أبداً، فكان التعبير بالمصلين من أجل بيان هذه العلاقة القوية بين الله وعبده المؤمن،كما أن الحديث عن يوم القيامة، وفيه تنقطع العلاقة بين البشر بعضهم وبعض إلا المصلين، كأن المصلي له صلة وثيقة بربه دون الخلق، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هناك ارتباطاً جلياً بين الصلاة والبعد عن الهلع والجزع والمنع، حيث إن الصلاة فيها الراحة والسكينة والطمأنينة،كما جاء في الحديث"وجعلت قرة عيني في الصلاة"[1] وفى الحديث الآخر:" يا بلال، أرحنا بالصلاة"[2]، وفيها الحث على البذل والعطاء، والقناعة والرضا، والتغلب على

(١) مسند الإمام أحمد ٣/ ١٢٨، وسنن النسائي حديث رقم/ ٦١١٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٦٤.

المصاعب كلها لثقة العبد بربه،ويقينه بقدرته، ولعلمه أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد،إذاً بالصلاة يتغلب العبد على الهلع والجزع وغير ذلك من الأمور المذمومة.

الثالث: أن الصلاة تُعَدُّ من المظاهر المهمة في التفريق بين المؤمن والكافر، إن لم تكن أهمها؛ ولذا جعلت حداً فاصلاً بين الفريقين، جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: عن جابر قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: "إن بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة"(١)، وفي الحديث الآخر الذي رواه الترمذي عن بُريدة، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال::"العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر"(٢).

الرابع: أن البيان القرآني أراد أن يطيل الحديث عن هذا الفريق فعدل عن تسميتهم بالمسلمين إلى المصلين بأوصافهم التالية؛ ليكون ذلك مدعاة لتعداد صفات كثيرة لهم، قال ابن عاشور:"عدل عن إحضارهم بوصف المسلمين إلى تعداد خصال من خصالهم، فذكر صفات ثمانٍ هي من أشعار المسلمين، إطناباً في الثناء عليهم؛ لأن مقام الثناء مقام إطناب، وتنبيهاً على أن كل صلة من هذه الصلات الثمان هي من أسباب الكون في الجنات"(٣).

كل هذه الأمور وغيرها كانت وراء اختيار لفظة ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ لتكون علامة مميزة للتعبير عن فريق أهل الإيمان.والمراد بـ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ هنا هم: المؤمنون عامة، وإن كان هناك بعضٌ يرى أن المقصود بها: المؤمنون الذين كانوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة(٤)،لكن لا وجه لهذا التخصيص؛ إذ ليس له ما يؤيده، فالأولى أن تحمل على العموم، فيوصف كل مؤمن بأنه من المصلين.

وكأن القرآن الكريم بهذا الاستثناء يريد أن يقول: إن هؤلاء المصلين الذين يجمعون مع الإيمان صالح الأعمال، فيتصفون بالأوصاف الجليلة الآتية معافَون من الهلع والجزع والمنع وغيرها من الصفات الذميمة، التي طُبِع عليها أهل الكفر، كما أن لظى إذا كانت

---

(١) صحيح مسلم ٨٨/١، ورياض الصالحين حديث رقم /١٠٨٥، باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات.

(٢) سنن الترمذي ١٣/٥ حديث رقم /٢٦٢١، ورياض الصالحين حديث رقم /١٠٨٦، الباب السابق.

(٣)التحرير والتنوير ١٥٨/٢٩.

(٤) راجع: تفسير الطبري ٦١٢/٢٣، وانظر: القرطبي ٢٩١/١٨.

هـي مـصير الكـافرين المتـصفين بالـصفات الذميمـة، فـإن الجنـة هـي مـأوى المـؤمنين المطبوعين على الصفات الحميدة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

هذا، وقد ذكر القرآن الكريم لهؤلاء المصلين ثماني صفات، كانت وراء ترشيحهم لدخول الجنة، هي:

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾

بداية أشير إلى أن الصفات الثماني التي وصف الحق بها المصلين هنا، اثنتان منها تختصان بفريضة الصلاة، وهما الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ ، والأخيرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ ،وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية هذه الفريضة، وعلو مكانتها بين باقي الفرائض، وأنها مما يجب على المؤمن الاعتناء بها، وعدم التفريط في حقها، وسوف أتناول هنا الصفتين معاً حتى لا يتفرق الحديث عن الصلاة، وحتى يكتمل المراد منهما فأقول:

ما المقصود من الصلاة؟وما معنى ﴿دَآئِمُونَ﴾ و ﴿يُحَافِظُونَ﴾ ؟وما الفرق بين المداومة والمحافظة؟

وللإجابة عن هذا أقول: إن المقصود من الصلاة: عند الجمهور الصلوات الخمس المكتوبات، وقيل: النافلة، وقيل: ما أمروا به مطلقاً منها فرضاً كانت أو نفلاً[1].

أما ﴿دَآئِمُونَ﴾: فقيل:مواظبون عليها، وقيل: يصلونها لوقتها، وقيل:المراد بالدوام هنا: السكون والخشوع،أي: أنهم إذا صلوا لم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً،قاله عقبة بن عامر، والدائم: الساكن،ومنه: نهي عن البول في الماء الدائم، أي: الساكن الراكد. وقيل المراد: الذين يكثرون فعل التطوع منها،قاله ابن جريج والحسن، والدوام على الشيء:عدم تركه، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواماً عليه[2].

وليس هناك مانع من جواز هذه المعاني كلها، ويكون المعنى: أنهم مواظبون علي صلاتهم في أوقاتها، لا يشغلهم عنها شاغل، ويؤدونها بشروطها ومكملاتها من الخشوع والطمأنينة وحضور القلب، ولا يكونون كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص.

---

(١) ينظر: روح المعاني ٢٩/٦٣.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي ١٨/٢٩١.

وأما ﴿يُحَافِظُونَ﴾: فقيل: يحافظون على وضوئها وركوعها وسجودها، وقيل: يحافظون على أذكارها وأركانها وشروطها، لا يخلون بشيء من ذلك، وقيل: على صلاة التطوع[1]. والمعنى: أنهم يحافظون على الصلاة عموماً فرضاً كانت أو نفلاً؛ لأن من يحافظ على الفرض، فإنه بلا شك سيحافظ على الإكثار من النفل قدر طاقته. ويبادرون إليها أوائل أوقاتها، مع إتمام ركوعها وسجودها، وكافة أركانها وواجباتها وسننها وآدابها.

أما عن الفرق بين المداومة والمحافظة فقد كان الزمخشري من أوائل العلماء الذين قاموا بطرح هذا السؤال وأجاب عنه، فقال: "فإن قلت: كيف قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟ قلت: معنى دوامهم عليها: أن يواظبوا على أدائها، لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، كما روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - "أفضل العمل أدومه وإن قلّ"، وقول عائشة: "كان عمله ديمة"، ومحافظتهم عليها: أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم. فالدوام يرجع إلى: أنفس الصلوات، والمحافظة إلى: أحوالها"[2].

وقد ذكر الرازي ما يلزم المحافظة على الصلاة بشيء من التفصيل، حتى تؤدى على أكمل وجه، فأشار إلى أن ذلك يرجع إلى ثلاث مراحل، الأولى قبل الصلاة، والثانية: في أثناء الصلاة، والثالثة: بعدها،يقول:"فإن قيل: قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ،ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ، قلنا: معنى دوامهم عليها: أن لا يتركوها في شيء من الأوقات. ومحافظتهم عليها: ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه. وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة، وتارة بأمور لاحقة بها، وتارة بأمور متراخية عنها. أما الأمور السابقة: فهي أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها، ومتعلق بالوضوء، وستر العورة، وطلب القبلة، ووجدان الثوب والمكان الطاهرَين، والإتيان بالصلاة في الجماعة، وفي المساجد المباركة، وأن يجتهد

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٩/٣٧١، وانظر: فتح القدير ٥/٢٩٣.

(٢) الكشاف ٤/٦١٥.

قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس، والالتفات إلى ما سوى الله تعالى، وأن يبالغ في الاحتراز عن الرياء والسمعة. وأما الأمور المقارنة: فهي أن لا يلتفت يميناً ولا شمالاً، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة، فاهماً للأذكار، مطلعاً على حكم الصلاة. وأما الأمور المتراخية: فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب، وأن يحترز كل الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي"[1].

إذاً رأينا أن هناك فرقاً بين المداومة على الصلاة والمحافظة عليها،وأنه يكمن في أن المداومة تكون بعدم الانشغال عنها،وأما المحافظة فتكون بأدائها على أكمل وجه، وقد رأينا أبا حيان يصرح بأنهما شيء واحد ولا يوجد فرق بينهما، وأن السبب في التكرار هو المبالغة في التأكيد، يقول بعدما عرض ما قاله الزمخشري في الوصفين:" وأقول: إن الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد، لكنه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بُولغ في التوكيد فيها، فذكرتْ أول خصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها"[2].

وأرى أن هذا الكلام غير دقيق؛ لأنهما لو كانا بمعنى واحد؛ لاكتفى بإحداهما عن الأخرى، كما أن المداومة قد جاءت بالصيغة الاسمية؛ للدلالة على أن مواظبتهم على الصلاة أمر ثابت لا ينقطع أبداً ما داموا أحياء يعقلون،وأما المحافظة فقد جاءت بالصيغة الفعلية؛للإشارة إلى أن محافظتهم عليها بكامل شروطها تتجدد مع كل صلاة، فكلما تجددت صلاة، تجدد معها الحفظ، وأيضاً فإن المحافظة لفظ عام يفيد معاني كثيرة منها: المواظبة، والاستمرار، والخشوع، والطمأنينة وغير ذلك، فالمحافظة أعم من المداومة، إذ هي مداومة وزيادة، يؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن عاشور عندما نفي أن تكون المحافظة لمجرد التأكيد بقوله:"وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ، ثناء عليهم بعنايتهم بالصلاة من أن يعتريها شيء يخل بكمالها؛ لأن مادة المفاعلة هنا للمبالغة في الحفظ مثل: عافاه الله، وقاتله الله، فالمحافظة راجعة إلى استكمال أركان الصلاة وشروطها وأوقاتها، وإيثار الفعل المضارع؛ لإفادة تجدد ذلك الحفظ وعدم التهاون به،

---

(١) التفسير الكبير ٣٠ / ٦٤٥،وانظر:السراج المنير٤ / ٤٢٤، وفتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن للإمام زكريا الأنصاري ص٥٨١ تحقيق / محمد الصابوني.ط: دار القرآن الكريم. بيروت.ط:١٤٠٣هـ

(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٢٧.

بذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ ، بل فيها زيادة معنى، مع حصول الغرض من التأكيد، بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين"[1].

إن البيان القرآني في ذكره صفات المؤمنين قد أتى على رأسها وفي آخرها،بهذه الفريضة التي هي أم الفرائض، إنها الصلاة التي كما أنها تصل العبد بخالقه، فإنها تصله بالمخلوقين على أتم وجه؛ لأنها تجعله يحب لهم ما يحبه لنفسه، إن هذه الصفة نظراً لأهميتها، وأثرها العظيم في صاحبها أحاطت باقي الصفات الأخرى،وفي هذا إشارة إلى أنه .كما ذكرت في سورة المؤمنون .لا فرق بين حقوق الله وحقوق العباد، وأن من يحافظ على حقوق الله، فإنه لا شك سيحافظ على حقوق العباد، وأن من يفرط في حق الله فإنه لا يمكن أن يراعي ويحافظ على حقوق العباد، فكل منهما مرتبط بالآخر،كما أن ذكرها في البدء والختام:"مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير، ومبدأ لهذا المذكور كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة/٤٥] فهي عون على كل خير، ولقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ...﴾ [العنكبوت/٤٥]، فهي سياج من كل منكر، فجمعت طرفي المقصد شرعاً، وهما العون على الخير والحفظ من الشر، أي: جلب المصالح ودرء المفاسد"[2].

إن ذكر هذه الصفة في حق المؤمنين فيها تعريض بأحوال الكافرين، حيث إن المؤمنين لا يشغلهم أي شاغل مهما كان عن الصلة التي تربطهم بالله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ...﴾ [النور/٣٦،٣٧]، بخلاف ما ذكر عن الكفار في قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج/١٧، ١٨]، والذي يدل على انشغالهم بالدنيا، والانصراف عن الآخرة، فجاءت هذه الصفة لتثبت للمؤمنين عكس ما ذكر في شأن الكافرين.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/١٦٢.

(٢) أضواء البيان ٨/٢٦٩.

وما يقال في نظم هاتين الآيتين هو نفسه ما قيل في نظمهما في آيات سورة (المؤمنون)، من ناحية التعبير باسم الموصول، واسمية صلته، وتقديم المسند إليه على المسند، وإضافة الصلاة إلى الضمير، ومجيء فاصلة الآية الأولى اسماً ﴿دَآئِمُونَ﴾، والأخرى فعلاً ﴿يُحَافِظُونَ﴾ ،كل ذلك سبق أن توقفت معه فلا داعي لتكراره مرة أخرى.

الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

هذه هي الصفة الثانية من الصفات التي سجلها البيان القرآني للمؤمنين المصلين، وهذه الصفة تساوي إيتاء الزكاة، وعلى عادة القرآن الكريم عندما يذكر الصلاة يعقبها بذكر قرينتها، وهي الزكاة، وذلك حتى يتم الجمع بين زكاة الروح متمثلة في الصلاة، وزكاة المال متحققة في تلك الفريضة.وقد تعددت الآراء في المقصود بالحق المعلوم هنا،إلى ثلاثة آراء.الأول: أنه الزكاة المفروضة، قاله قتادة والحسن وابن سيرين، وعليه أكثر العلماء. والدليل على ذلك :١. وصف الحق بأنه معلوم مقدر، وليس هناك حق مقدر إلا الزكاة، أما الصدقة فهي غير مقدرة، إنما تكون على قدر الحاجة، وذلك يقل ويكثر. ٢اقتران هذا الحق بإدامة الصلاة ٣ ـ أن الله تعالى ذكر هذا على سبيل الاستثناء ممن ذمه، فدل ذلك على أن الذي لا يُعطي هذا الحق يكون مذموماً، ولا حق على هذه الصفة إلا الزكاة. الثاني: أنه ما سوى الزكاة، ويكون على طريق الندب والاستحباب، قاله مجاهد وعطاء والنخعي، وأيده بعض العلماء كالثعالبي،وابن عاشور وغيرهما، وحجتهم في ذلك: أن هذه السورة مكية، وفرض الزكاة وبيانها إنما كان بالمدينة. الثالث:أنه الحق الذي يكون صلة لرحم أو حملا لِكَلّ، قاله ابن عباس. والذي نرجحه من هذه الأقوالٍ هو رأي الجمهور، لقوة حجته، وتناسبه مع سياق السورة.أما ما احتج به الآخرون فيرد عليه، بأن أصل الزكاة كان واجبًا بمكة، كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الآية /١٤١]، أما التي فرضت بالمدينة فالظاهر أنها ذات النِّصَب والمقادير الخاصة[1].

ومع ذلك فليس هناك مانع من أن يحمل الكلام على عمومه، خاصة أن من يقوم بأداء الفرائض تكون لديه الرغبة الشديدة في الإكثار من النوافل.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير٥ /٤٦٢.

أما المقصود بلفظ السائل، فقد اتفق العلماء على أنه: الفقير الذي يظهر فقره، فيسأل الناس،أما المحروم فقد اختلف العلماء في تعريفه حتى ذكر القرطبي له أحد عشر تعريفاً منها: من ليس له سهم في الإسلام، ومنها: المتعفف الذي يحسبه الجاهل غنيا فيحرم الصدقة من أكثر الناس، ومنها: الذي لا ينمو له مال، ومنها: المُحَارَفُ الذي يطلب الدنيا فتدبر عنه، ولا يسأل الناس.

ويدل على حيرة العلماء في تحديد دقيق للمحروم ما ذكره ابن عطية عن الشعبي حيث قال: أعياني أن أعلم ما المحروم؟ وحكى عنه النقاش: أنه قال وهو ابن سبعين سنة: سألتُ عنه وأنا غلام فما وجدت شفاء. قال القاضي أبو محمد: يرحم الله الشعبي، فإنه في هذه المسألة محروم، ولو أخذه على أنه "اسم جنس" فيمن عسرت مطالبه، بان له، وإنما كان الذي يطلبه نوعاً مخصوصاً كالسائل.

ويجمع هذه الأقوال كلها وغيرها ـ كما قال الآلوسي ـ أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه[1].

وبالتأمل في نظم هذه الصفة نجد أنها بدأت بحرف العطف الواو، وفي هذا دلالة واضحة على الرسوخ في الوصف؛ لأن العطف بالواو يقتضي ذلك، كما يُقال:هو عالم وشاعر وأديب، كما أن العطف يشير إلى المغايرة بين الصفتين،فالصفة الأولى:تتعلق بحق الله، والثانية: تتعلق بحقوق عباد الله.

ثم نجد أن اسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ قد كرر ذكره بعد العطف، وكان يكفي في ذلك العطف، فيقال مثلاً: ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ... يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ... لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ إلى آخره، لكن النظم القرآني آثر التعبير باسم الموصول وكرره مع باقي الصفات، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن كل صفة من هذه الصفات من الأهمية بمكان، مما يجعلها تستحق أن تقوم بموصوف مستقل بذاته، وأن كل واحدة منها تكون سبباً من أسباب دخول الجنة، يقول أبو السعود:"وتكرير الموصولات لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات... إيذاناً بأن كل واحد من الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله، له شأن خطير، مستتبع لأحكام جمة، حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٦٨، وانظر: روح المعاني ٢٧/ ٩.

شيء منها تتمة للآخر"[1].كما أكد ابن عاشور ذلك عندما قال:" وإعادة اسم الموصول مع الصلات المعطوفة على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ ، لمزيد العناية بأصحاب تلك الصلات، وتنبيهاً على أن كل صلة من هذه الصلات الثمان هي من أسباب الكون في الجنات"[2].

ثم انظر إلى التعبير عن إخراجهم الزكاة، وما يعطونه للفقراء والمحتاجين بكونه(حقاً معلوماً)، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الممدوحين قد جعلوا هؤلاء نصب أعينهم وهم يسعون في تحصيل المال، فجعلوهم وكأنهم شركاء لهم في هذا المال، لأن لهم حقاً فيه فلا بد من الوفاء به، هذا الحق نظراً للاهتمام به من كلا الطرفين، أصبح معلوماً للمنفق والآخذ، وهذا التعبير عندما يذكره القرآن الكريم نراه يردفه بـ ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، وهذا فيه اهتمام كبير بهذا الصنف من بين الأصناف المستحقين لها، أو أن هذا الصنف هو الذي كان بارزاً في البيئة المكية، فَوَجَّه الأنظار إليه، ثم في هذا التركيب نجد أن السائل قدم على المحروم؛ لأنه هو الموجود الظاهر أمام الناس يستجديهم، فيعطى حقه أولاً، أما المحروم فنظراً لأنه غير معروف للناس، فهو في حاجة لمن يبحث عنه، يقول البقاعي:"ولما كان في السؤال من بذل الوجه، وكسر النفس ما يُوجب الرقة مع وقاية النفس من المذمة، قدّم قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ ، أي: المتكلف لسؤال الإنفاق المتكفف، ولماّ كان في الناس من شرفت همته، وعلت رتبته على مهاوي الابتذال بذّل السؤال، من الإقلال بذب المقبل على الله، للتفطن والتوسم لأولئك، فقال: ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ ،أي: المتعفف الذي لا يسأل، فيظن غنياً ولا مال له يغنيه، فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره، ولا مفزع له بعد ربه المالك لعلانيته وإسراره إلا إلى إفاضة مدامعه بذّله وانكساره، وهذا من الله تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له، ومن افتقر بعد الغنى"[3].

إن هذه الصفة قد حققت عند هؤلاء الممدوحين أموراً كثيرة؛ لأن الشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقاً في الأموال هو شعور بفضل الله من جهة، وبآصرة الإنسانية من جهة أخرى، فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربقة الحرص والشح، وفي

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٣٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٥٩.

(٣) نظم الدرر ٨/ ١٥٢.

الوقت ذاته فإنها ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها،إنها فريضة ذات دلالات شتى في عالم الضمير وعالم الواقع سواء، وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطاً في ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص في السورة[1].

إن البيان القرآني بهذا النظم المعجز يريد أن يلفت الانتباه إلى أن الممدوحين بهذه الصفة، يستحقون الثناء عليها؛ لأن إعطاءهم للمال لمن سألهم ولمن لم يسألهم ممن هم أهل للصدقات كان عن طيب نفس منهم؛ تقرباً إلى الله تعالى، وإشفاقاً على إخوانهم المحتاجين، كما أن هذه الصفة متمكنة من نفوسهم، ثابتة لديهم،وهذا ما أفادته الجملة الاسمية: ﴿ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴾ ، الواقعة صلة للموصول.

وهذه الصفة التي جاءت مدحاً للمؤمنين، جاءت في مقابل ذم الكافرين في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

الصفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾.

هذه هي الصفة الثالثة من الصفات الثمانية التي ذكرها الحق تبارك وتعالى في حق المصلين،

و"يوم الدين": ـ كما هو معلوم ـ هو يوم القيامة، سمّي بذلك؛لأنه يوم المجازاة، والدين: هو الجزاء، يقول الله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾[النور/٢٥]، أي: حسابهم،ويقول:﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات/٥٣]، أي: مجزيون محاسبون، والعرب تقول: كما تدين تدان.

وهذه الصفة تنص على أن هؤلاء الموصوفين يؤمنون إيماناً جازماً بكل ما يتعلق بيوم القيامة، من البعث بعد الموت، والنشر، والحشر، والصراط، والميزان، والحساب، والجزاء، والجنة، والنار إلى آخره، إنهم يوقنون بمجيئه يقيناً لا يشوبه شك أو ارتياب، ومن ثَمَّ فهم يستعدون له بالإكثار من الأعمال الصالحة،والإخلاص فيها، ويسعون لهذا اليوم السعي الجاد الذي يحقق لهم السعادة الأبدية في جنات النعيم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء/١٩]، وقوله في حق المتقين: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة/٤].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن٦/ ٣٧٠٠ بتصرف.

ويلحظ أن هذه الصفة قد أتت عقب الحديث عن فريضة الصلاة وإنفاق المال، وذلك ليجمع للممدوحين الثناء بهذه الأمور الثلاثة، حظ البدن ممثلا في الصلاة، وحظ المال محققاً في الزكاة، وحظ القلب مجسداً في التصديق بيوم الدين، يقول البقاعي موضحاً علاقة هذه الصفة بما قبلها:"ولماّ كان المال قد يصرف لإصلاح الدنيا، بينّ أن النافع منه إنما هو المصدق للإيمان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ أي: يوقعون التصديق لمن يخبرهم، ويجددونه كل وقت ﴿بِيَوۡمِ﴾ ، ولماّ كان المقصود الحث على العلم لأجل العرض على الملك الأعلى، عبرّ بقوله: ﴿ٱلدِّينِ﴾ أي: الجزاء الذي ما مثله، وهو يوم القيامة الذي يقع الحساب فيه، والدينونة على النقير والقطمير، والتصديق به حق التصديق: الاستعداد له بالأعمال الصالحة، فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال، وأما المصدّقون بمجرد الأقوال فلهم الوبال وإن أنفقوا أمثال الجبال"[1].

وبالتأمل في نظم هذه الآية الكريمة نجد أن جملة الصلة فيه جاءت مخالفة لما قبلها وما بعدها، فقد جاءت جملة فعلية: ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ وفعلها مضارع، ولم يقل مثلا:"والذين هم مصدقون بيوم الدين، أو الذين صدقوا بيوم الدين"، فما السر في ذلك؟

إن البيان القرآني نظر إلى أن التصديق عمل من أعمال القلب، وهو بذلك لا يقبل التفاوت، وإنما هو عام لجميع المسلمين لا امتياز فيه لأحد منهم، ومن ثَمَّ جيء به على الأصل في مجيء جملة الصلة فعلية، ثُمَّ لما كان هذا التصديق والأعمال المترجمة عنه تتجدد منهم، آثر التعبير بالفعل المضارع؛ للدلالة على هذا التجدد والاستمرار فيه.ثم انظر إلى قوله: ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وتخصيصه بالتصديق من بين أركان الإيمان الواردة في حديث جبريل عليه السلام المشهور حين قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبرني عن الإيمان. قال:" أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره..."[2] الحديث،إن هذا التخصيص إن دل على شيء فإنما يدل على لفت الانتباه لهذا اليوم، والاهتمام به حتى ينشطوا ويجدوا في الاستعداد له، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن فيه رداً بليغاً على الكفرة الجاحدين له؛ إذ إن سياق السورة كلها يدور حول

---

(١) نظم الدرر ٨ / ١٥٢، وانظر:السراج المنير ٤ / ٤٢٥.

(٢) صحيح مسلم ١ / ٣٦ باب بيان الإيمان والإسلام حديث رقم(١)، وصحيح البخاري ١ / ٢٧ رقم(٥٠).

الحث على التصديق بهذا اليوم، وهذا ما سارع إليه المؤمنون، مما دفعهم إلى إحسان الصلة بالله عن طريق الصلاة، وإحسان الصلة بخلق الله عن طريق الزكاة، فعملوا عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب، أما الكفرة فكانوا على العكس من ذلك؛ حيث إنهم كذبوا بإمكانية وجود هذا اليوم، ومن ثَمَّ فقد قطعوا الصلة بالله، كما قطعوا الصلة مع خلق الله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج/٦، ٧]، ومعنى: أنهم يرونه بعيداً، أنهم يستبعدون مجيئه، وبالتالي فلا يؤمنون به أبداً.

إن التصديق بيوم الدين والإيمان به يُعَدُّ الدافع الأهم الذي دفع المؤمنين إلى المبالغة في طاعتهم لربهم، أما الكافرون فكانوا على العكس من ذلك تماماً، وبالتالي فقد ترتب عليه أنهم بالغوا في ارتكاب المنكرات، وأعظمها تكذيبهم بهذا اليوم.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

هذه الصفة لها علاقة قوية بالتي قبلها؛ حيث إنها تتحدث عما يحدث في يوم الدين، يوم القيامة العظيم، هذا اليوم الذي من أهواله: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج/٢]، ومن أهواله كذلك: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج/١١–١٤].

إن البيان القرآني في هذه الصفة يشير إلى أن تصديق هؤلاء الممدوحين بمجيء يوم الدين، وخوفهم من عذاب ربهم، هو الذي جعلهم يستعدون لهذا اليوم أيَّما استعداد، وذلك بكثرة الأعمال الصالحة والمبالغة فيها، ومع إكثارهم من تلك العبادات المتنوعة مالية كانت أم بدنية، فإن الخوف يلازمهم؛ لأنهم لا يعلمون هل قبلت أعمالهم؛ فتنجيهم من عذاب هذا اليوم،أو حبط ثوابها فيلحقهم العذاب؟

والإشفاق: هو توقع حصول المكروه، وأخذ الحذر منه، يقال: أَشْفَقْتُ أُشْفِق إشفاقاً، والإشْفاق: الخوف، وتقول أنا مُشْفِقٌ عليك، أي: أخاف، والشَّفَقُ أيضاً الشَّفَقة: وهو أن يكون الناصِحُ من بُلوغ النُّصْح خائفاً على المَنْصوح، تقول: أَشْفَقْت عليه أن يَنالَه مكروه، وأشْفَق عليه حَذِرَ[1].

(١) ينظر: اللسان مادة (شفق).

والإشفاق ـ كما يقول الرازي ـ يكون من أمرين: إما الخوف من ترك الواجبات، أو الخوف من الإقدام على المحظورات، وهذا كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ... ﴾ [المؤمنون/٦٠]، ومن يدوم به الخوف والإشفاق فيما كُلف، يكون حذراً من التقصير، حريصاً على القيام بما كُلف به من علم وعمل.ثم إنه تعالى أكد ذلك الخوف، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ، والمراد: أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدّى الواجبات كما ينبغي، واحترز عن المحظورات بالكلية، بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك، فلا جرم يكون خائفاً أبداً[1].

ويلحظ هنا أن البيان القرآني قد أطال الحديث عن هذه الصفة والتي قبلها، مع أنه كان يكفي في مدحهم ما ذكره في الصفة السابقة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ، لكنه أطال الكلام عن يوم الدين؛ ليضيف إليهم درجة أخرى فوق التصديق بهذا اليوم، إنها درجة الشعور بالتقصير في حق الله مع كثرة العبادة، وللتأكيد على مجيء هذا اليوم، وإثبات ما يكون فيه من نعيم وعذاب، دفعاً لإنكار المنكرين له، وعدم اعتقادهم فيه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التصريح بما يحدث في هذا اليوم من عذاب خصوصاً،جاء للتنبيه على مدى إحساسهم بهول ما فيه من أمور جسيمة، وأحداث أليمة، وليكون ذلك في مقابل ادعاء الكافرين بأنه على فرض مجيء هذا اليوم، فإنهم سيكونون في مأمن من عذابه، مصداقاً لقوله تعالى على لسانهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات/٥٩].

ولما كان المقام مقام ترهيب؛ فقد جاء النظم القرآني مؤكداً بعدة مؤكدات، منها: أنه صرّح بذكر العذاب مرتين، ومنها: أنه أتى بالجملة الثانية: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ؛ لتقرر مضمون ما قبلها، ولتبين أن ذلك مما لا ينبغي لأحد مهما كان أن يأمنه، ومنها: أنه صدّر هذه الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ مع أن المؤمنين ليسوا في حاجة إلى تأكيد، ولكن جيء به لإفادة التعريض بالذين ينكرون هذا العذاب وهم الكافرون.أما الرجاء المتعلق بفعل الطاعات فكان الإيماء إليه في الصفة السابقة عن طريق كلمة ﴿ٱلدِّينِ﴾ ،لأنه بمعنى الجزاء وكل سيجازى بما عمل.

---

(١) ينظر: التفسير الكبير٣٠/٦٤٦.

كما يلحظ أيضاً أن جملة الصلة في هذه الصفة جاءت جملة اسمية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، وذلك لتحقيق أمرين: الأول التناسب بين أكثر الصلات، والثاني: "لتحقيق وثبات اتصافهم بهذا الإشفاق؛ لأنه من المغيبات، فمن شأن كثير من الناس التردد فيه"(١).

أرأيت كيف تعاون النظم القرآني في الكشف عن عظم الخوف عند المؤمنين من هول هذا اليوم؛ مما دفعهم إلى عظم الأعمال، وأن عدم الخوف منه عند الكفار؛ دفعهم إلى ارتكاب قبائح الأعمال؟!

الصفة الخامسة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾.

هذه الصفة سبق الحديث عنها بإفاضة في آيات سورة المؤمنون، ولكن أشير هنا إلى أنها ذكرت في سياق صفات المؤمنين المعافين من الصفات الذميمة التي جاء ذكرها في هذه السورة؛ لأن هناك صلة قوية بين مدح المؤمنين بحفظ الفروج والعفة، وما جاء في وصف الكافرين في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾؛ حيث إن الكافر نظراً لعدم إيمانه بالبعث والجزاء فإنه أشد جرأة على ارتكاب المحرمات، وأعظم القبائح، وأشدها قبحاً. بعد الكفر. جريمة الزنا التي يدفع إليها جمع المال وكثرته.

ولعل في هذه الصفة تعريضاً بحال الكفرة بأنهم غير أعفاء ولا تتوافر فيهم هذه الصفة، وهذا ما يشهد به الواقع، ويؤكده من الشذوذ والإباحية التي نراها تشيع في مجتمعاتهم، فالمجتمع المؤمن مجتمع طاهر محافظ، أما المجتمعات الأخرى فهي مجتمعات همجية لا ترعى حقوقاً، ولا تحافظ على حرمات، وهذا أمر طبيعي؛ لأنهم إذا كانوا قد اجترءوا على حق الله، فليس هناك ما يمنعهم من الاجتراء على خلق الله.

الصفة السادسة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾.

هذه الصفة أيضاً من الصفات التي سبق تناولها في سورة (المؤمنون)، وهي بالنسبة للصفة السابقة تُعَدُّ من باب عطف العام على الخاص؛ لأن حفظ الفروج أمانة خاصة، وما ذكر بعدها من الأمانات العامة، وهي تشير إلى أن من يحافظ على الأمانة الخاصة، فهو بلا

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٦٠.

شك يحافظ على الأمانات العامة أيضاً، كما أن ذكر هذه الصفة في هذا السياق يُعَدُّ تعريضاً بالكافرين، حيث إن دلالتها تقول إذا كان هؤلاء الموصفون يحافظون على أماناتهم الخاصة والعامة، فإن هؤلاء الكفرة لا يحفظون حقوقاً، ولا يرعون عهوداً.

الصفة السابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾.

هذه صفة أخرى من صفات هؤلاء المصلين، وردت في الثناء عليهم، وهي تُعَدُّ من جملة الأمانات العامة السابق ذكرها، لكن جاء التنصيص عليها وتخصيصها بالذكر؛ تنبيهاً على أهميتها، وإبانة لفضلها؛لأن الحقوق لا تؤدى إلا بها،فبإقامة الشهادة تحيا الحقوق وتظهر، وفي تركها تموت وتضيع، وهذه الصفة لم ترد في صفات سورة (المؤمنون)، وإنما ذُكرت في هذه السورة، إكمالاً للعبادات التي يقومون بها، يقول صاحب درة التنزيل:"ثم خص الآية في سورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بما أجرى عليه الآيات التي قبلها من المبالغة في الطاعات التي تضمنت ذكرها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ أي: يؤدون . بعد الأمانات التي في رقابهم وذممهم . الأمانات التي في ذمم غيرهم، وثباتها بشهاداتهم، فوصف من يؤدي الأمانات التي في رقابهم وذممهم إلى الأمانات التي يثبت بها حقوق تخصه إلى مستودعيها على غيرهم، فكان من المبالغة التي تقتضيها الآيات المتقدمة ذكر الشهادات عُقَيب أداء الأمانات"[1].

وقرأ الجمهور"شهادتهم" بالإفراد، وقرأ حفص ويعقوب وهي راوية عن ابن كثير ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ بالجمع[2]. قال الواحدي: والإفراد أولى؛ لأنه مصدر، فيفرد كما تفرد المصادر، وإن أضيف إلى الجمع كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان/١٩]، فأفرد الصوت مراداً به الأصوات، وقال الفراء: ويدل على قراءة الإفراد قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق/٢]، وقيل: إن الإفراد مقصود؛لأن الشهادة معناها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله . كما ورد عن ابن عباس[3]، ومعنى إقامتها:أنهم حفظوا ما شهدوا به من شهادة أن لا إله إلا الله، فلا يشركون به في شيء من الأفعال والأقوال.

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل الخطيب الاسكافي ص٤٩٩،ط: دار الآفاق الجديدة . بيروت.

(٢) ينظر: الحجة في القراءات السبع/ابن خالويه١/٣٥٢،والنشر في القراءات العشر/ابن الجزري٢/٤٣٠.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي١٨/٢٩٢، والسراج المنير٤/٤٢٦، وفتح القدير٥/٢٩٣.

وأما قراءة الجمع فلأن معنى الشهادة عند أكثر العلماء: أنها هي التي تتعلق بحقوق العباد، ومعنى إقامتها: أنهم يحافظون عليها، ويؤدونها كما هي؛ ابتغاء وجه الله دون زيادة أو نقصان، ولا يكتمونها أيضاً، وبالتالي يكون جمعها منظوراً فيه إلى اختلاف الشهادات، وتنوعها بحسب متعلقها، فهناك الشهادة في البيع،والشراء، والنكاح، والطلاق، والدَّيْن، والحدود، إلى آخره.

وعندما ننظر إلى نظم هذه الآية نجد أن لفظ الشهادة فيه جاء مقدماً على عامله: ﴿قَآئِمُونَ﴾ ، ومسبوقاً بحرف الجر الباء، ثم أضيفت إليهم: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾،ثم جاءت جملة الصلة جملة اسمية، ثم اختيار كلمة: ﴿قَآئِمُونَ﴾ دون غيرها، كل هذه العناصر إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى اهتمامهم بها، وأنها صفة ثابتة لديهم،فلا يتأخرون عن أدائها حتى وإن كان المشهود عليه قريباً أو صديقاً، كما أنه لا يشغلهم عن القيام بها أي شيء مهما كان، قال البقاعي: يقول الله تعالى:"مبيناً لفضل الشهادة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم﴾ أي: بغاية ما يكون من توجيه القلوب ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ التي شهدوا بها أو يستشهدون بها لطلب أو غيره، وتقديم المعمول إشارة إلى أنهم في فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها، كأنهم لا شاغل لهم سواها ﴿قَآئِمُونَ﴾ أي: يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن، أداء من هو متهيئ لها، واقف في انتظارها"[1].

إن هذه الصفة جعلها الله عز وجل سمة من سمات عباده المؤمنين، أتى بها ليشير إلى أنهم كما حافظوا على حقه تبارك وتعالى، فإنهم قاموا بالمحافظة على حقوق عباده.وهذه الصفة في حق أصفيائه جاءت في مقابلة ذم أعدائه الذين ضيعوا حق الله وحق عباده في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾.

الصفة الثامنة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

وهي صفة الختام، وكما بدأت هذه السمات الجليلة بهذه الصفة العظيمة جاء الختام بها؛ للتأكيد على الاحتفاء بها والاهتمام بشأنها، وعدم التفريط فيها، طالما أن هناك عِرقاً ينبض، وعقلاً يفكر، كما أن مجيئها في المطلع والختام لتتزين بها باقي السمات، وفي هذا ما فيه من الجمال الذي يسمي عند البلاغيين برد العجز على الصدر.

---

(١) نظم الدرر ٨ / ١٥٤،وانظر:السراج المنير ٤ / ٤٢٥.

وهو محسن بديعي لفظي يكسب الكلام جمالاً وسحراً وبلاغة، والمقصود به في النثر:" هو أن يُجعل أحد اللفظين المكررين أو المتُجانسين أو المُلحقين بهما في أول الفقرة أو الجملة، واللفظ الآخر في آخرها، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴾ [الأحزاب/٣٧]"[1].

وقد سبق أن تناولت هذه الصفة بالتحليل عند الحديث عن الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، مما أغنى عن إعادته.

نأتي بعد ذلك إلى جزاء مَنْ تحلي بهذه السمات العالية، وهي الآية التالية:

الآية الأخيرة، آية الجزاء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

هذه هي الجائزة التي أعدها الرحمن لعباده، إنها الجائزة الكبرى، وما أعظمها من جائزة!.إنها مِمَنْ ؟! من ملك الملوك، وعد بها مَنْ اتصف بمجموعة من الأوصاف الجليلة، والمناقب الرفيعة، إنه يقدمها لهم قائلا: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان/٢٢]، إنه يقول لهم إني أعددت لكم الجنة فـ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق/٣٤، ٣٥]، إنه يقول لهم عند تسلمهم لهذه الجائزة و ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن/٦٠]، إنه يقول لهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس/٢٦].

إن من اتصفوا بمكارم الأخلاق المذكورة، كان مصيرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، إن هذا النص على قصره قد جمع لهؤلاء المؤمنين بين لون من النعيم الحسي، ولون من النعيم الروحي، فهم في جنات، وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات، فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم، جزاء على هذا الخلق الكريم الذي تميزوا به[2].

كما أن من يتحلى بتلك الأوصاف العالية يحقق أمرين: الأول هو معالجة الداء الخطير الذي طُبِع عليه أهل الكفر وهو داء الهلع، والآخر: هو الفوز بالنعيم الدائم في جنة الخلد.

وبالتأمل في نظم تلك الجائزة الكبرى، نجد أنها بدأت جملة مستأنفة مستقلة ولم تربط بأي رابط فلم يقل مثلا"فأولئك"، وذلك للدلالة على أن هذا الجزاء . وإن كان ظاهره

---

(١) شروح التلخيص٤/٤٣٣.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن٦/٣٧٠٢.

أنه ترتب على ما قدم من عمل. يُعَدُّ فضلاً من الله ونعمة، وأن رحمة الله هي التي كانت وراء هذا الجزاء لا العمل؛ حيث إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:" لا يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة وفضل، ووضع يده على رأسه"[1].

ثم انظر إلى التعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي يدل على البعد مع قرب العهد بالمشار إليهم، ولم يقل مثلاً"هؤلاء"، وذلك لإشعارهم بأن ثواب عملهم قد حفظ لهم، وأنهم مع رحمة الله بهم فإنهم استحقوا هذا الجزاء عن جدارة، وأن ما ذكر بعد اسم الإشارة كان نتيجة لما سبق اسم الإشارة،ثم اختيار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي يدل على البعد؛ للتنبيه على علو قدرهم وارتفاع شأنهم. ثُمَّ انظر إلى قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالجمع، ولم يقل(جنة) بالمفرد،ثم أيضا نراها جاءت نكرة، فما السبب في ذلك؟

أرى أن هذا الجمع يتناسب مع عظم هذه الأفعال التي قدموها، فلما ارتقوا في درج هذه الأعمال الصالحة ناسب أن يرتقي معهم في هذا الجزاء، فكان الجمع إشارة إلى هذا الارتقاء، ثم جاء التنكير ليدل على أنها جنات عظيمة، وأن العطاء والنعيم فيها مما لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه، وأنهم في نعيم دائم لا ينقطع أبداً، ثم انظر إلى تقديم الجار والمجرور ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ ، وما يوحي به من أن الله عز وجل قد عجل لهم بهذا الجزاء في الدنيا قبل الآخرة" لأنهم لمّا جاهدوا فيه بإتعاب أنفسهم في هذه الأوصاف، حتى تخلقوا بها أعطاهم بمباشرتها لذاذات من أنس القرب، وحلاوة المناجاة والتي لا يساويها شيء أصلاً"[2].

ثم تأمل قوله بعد ذلك: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ ومجيئها على صيغة اسم المفعول، للتنبيه على أنهم لما زادوا في الطاعات وبالغوا فيها؛ زاد لهم في النعيم، فلم يكتف بأن أدخلهم الجنة،بل زاد على ذلك إكرامهم بأنواع الكرامات التي تليق بهم، وللإشارة أيضاً "إلى عموم الإكرام من الخالق والخلق الناطق وغيره؛ لأنه سبحانه قضى بأن يعلو مقدارهم، حتى يكونوا أعظم مشخص لهم في الغيب، مبالغاً في إكرامهم"[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل٢/٢٥٦ حديث رقم(٧٤٧٣).

(٢) نظم الدرر٨/١٥٥.

(٣) المرجع السابق الموضع نفسه.

هذا على اعتبار أن ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبر أول لـ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ ،و﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ خبر ثانٍ، وهذا هو الأولى والمناسب للسياق، وهناك آراء أخرى منها: أن الخبر هو: ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ والجار والمجرور متعلق به، وقدّم عليه لمراعاة الفواصل،ومنها: أن الخبر أيضاً هو: ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ والجار والمجرور متعلق بمضمر هو حال من الضمير في الخبر، والمعنى: مكرمون كائنين في جنات[1].

اللهم اجعلنا من هؤلاء المعافين الفائزين بجنة النعيم. يا رب العالمين. ولا تحرمنا من رحمتك، يا غفور يا رحيم،آمين.

إنني في **نهاية الحديث عن هذا المقطع** من السورة، والذي برز من خلاله سمات فريق المؤمنين والجزاء الذي أعد لهم، أقرر وأنا مطمئن بأن ألفاظ نظمه جاءت موصوفة بصفات الحسن، فكل لفظة سهلة المخارج، عليها رونق الفصاحة،مع الخلو من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه، وفيها حسن البيان، من جهة أن السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه، وفيها التمكين؛ لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير قلقة ولا مستدعاة، كما اتضح فيها الانسجام، وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك، مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء القليل من الهواء. فانظر إلى عظمة هذا الكلام، وما انطوى عليه نظمه وما تضمنه لفظه؛ لتقدره قدره[2].

أما عن **السمات الأسلوبية، والظواهر البلاغية** التي انتظمت تلك الآيات الكريمة، فالتشابه الكبير بينها وبين آيات صفات المؤمنين، يغني عن إعادتها مرة أخرى.

* * *

---

(١) راجع: تفسير أبي السعود ٩/ ٣٤.

(٢) ينظر: من إعجاز القرآن (نظم القرآن) د/حفني شرف ص٤٢.ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر. العدد٢٢ط: ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

المبحث الثالث

من متشابه النظم بين آيات السورتين

أضع الآيات أولاً، ثم أستنبط منها مواطن: الاتفاق، والاختلاف بين السورتين، ومواطن انفراد كل منهما:

١. يقول الله تعالى عن وصف المؤمنين في أول سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٢. يقول الله تعالى عن وصف المؤمنين في سورة (المعارج): ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝٢٦ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٣٢ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ۝٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

بالتأمل في تلك الآيات يتبين لنا ما يلي:

أولا: مواطن الاتفاق:

١. في سورة المؤمنون قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾.

وفي سورة المعارج قال: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

٢. في سورة المؤمنون قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

وفي سورة المعارج قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

٣. في سورة المؤمنون قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

وفي سورة المعارج قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.

لكنها جاءت في الأولى بالجمع وفي الثانية بالإفراد.

ثانياً: مواطن الاختلاف:

١. في سورة المؤمنون قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وفي سورة المعارج قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾.

٢. في سورة المؤمنون قال: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾.

وفي سورة المعارج قال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾.

٣. في سورة المؤمنون قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وفي سورة المعارج قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾.

ثالثاً: مواطن انفراد كل منهما:

١. ما انفردت به سورة المؤمنون:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾.

٢. ما انفردت به سورة المعارج:

أ. قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾.

ب. قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾.

ج. قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾.

عندما ننظر إلى مواطن **الاتفاق**، نجد أن التعبير في الموطن الأول عن فريضة الزكاة في سورة المؤمنون أتى صريحاً وعاماً، أما ما جاء في سورة المعارج فلم يكن صريحاً، وإنما جعلها حقاً معلوماً، ثم بعد ذلك ذكر مصرفاً واحداً من مصارفها الثمانية المعروفة، وهو مصرف الفقراء معبراً عنه بالسائل والمحروم؛ اهتماماً بشأنهم، واعتناءً بأمرهم.

أما عن الموطن الثاني وهو الخاص بالأمانات بمعناها العام، وعلى رأسها أمانة حفظ الفرج وكمال العفة، فقد اتفقا في الموضعين تمام الاتفاق، وما ذاك إلا لأن هذه الأمور لا يمكن أن يختلف عليها اثنان من ناحية عظم شأنها، وجلال قدرها، كما أنها مما يقل فيها التفاوت من إنسان لآخر.

أما عن الموطن الثالث وهو الخاص بالمحافظة على فريضة الصلاة، فقد اتفقا فيه أيضاً، لكن التعبير عنها في سورة المؤمنون جاء بصيغة الجمع: ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ﴾، أما في سورة المعارج فقد جاء بصيغة المفرد: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾، وجاء الجمع في الأولى؛ لأنه هو المناسب للمدح بالرسوخ في تلك الصفات، فالجمع يشمل ويعم المحافظة على جميع الصلوات فرضاً كانت أو نفلاً، مع مراعاة تمام آدابها وسننها.أما الإفراد فمنظور فيه إلى المحافظة على الفرض فقط،وهذا يتناسب مع سياقه أيضاً؛ لكونه ذُكِرَ في معالجة داء الهلع، فيكفي فيه أداء الفرض ليقوم بعلاج هذا المرض وإزالته ،وإن قيل: إنه اسم جنس فيدل على العموم كالجمع، لكن دلالة الجمع على العموم دلالة واضحة وصريحة. وقد أرجع صاحب (ملاك التأويل) الجمع في سورة (المؤمنون) إلى التفخيم المتمثل في أوصافهم وجزائهم، والإفراد في (المعارج) لعدم توفر ذلك لا في أوصافهم ولا في جزائهم، وهذا التوجيه وغيره لا مانع من قبوله[1]؛ لأنه كما قيل: إن النكات البلاغية لا تتزاحم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثراء البلاغة القرآنية، وكثرة أسرارها.

وعن سر الاتفاق بين السورتين في بعض الأوصاف ـ من: حفظ الفرج، ومراعاة الأمانة، والوفاء بالعهد، والمحافظة على الصلوات ـ يشير صاحب (ملاك التأويل) إلى أنها أمهات لما سواها، وعن ذلك يقول:"إن حفظ الفروج هو أحد الأصول الخمسة التي اتفقت فيها الشرائع، ولم يخالف فيها أحد من العقلاء، وهي حفظ: النفوس، والأموال، والفروج، والعقول، والأعراض. وأما الأمانة فلا يتم حفظ هذه الخصال إلا بها، فهي الأصل لتلك الأصول، والضابط لجميع التكاليف، وزمام الأديان، وهي بالجملة ملاك الدين. وأما الوفاء بالعهد فَلَاحِقٌ بالأمانة في نصاب التأكيد، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء/٣٤]، وتكرر الأمر بذلك لعظيم قدر الأمانة والعهد. وأما المحافظة على الصلوات، رعياً لأوقاتها، وكيفية أدائها، وما تنطوي عليه من جميع مطلوباتها ومتعلقاتها، وما تستلزمه وتستتبعه حتى تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر، فذلك كل الدين.فموقع هذه الخصال الأربع وضمها لما سواها من المطالب الإيمانية، واشتمالها على

---

(١) ينظر:المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية د/ صالح الشثري ص١٧٩، وملاك التأويل١/٤٦٠.

جميعها، أوجب تعيينها بالذكر، ولم يكن ليحصل من ذكر غيرها ما حصل من التنصيص عليها، فتكررت في السورتين، ونص فيهما عليها؛ لأنها أمهات لما سواها"[1].

أما عن مواطن **الاختلاف**،فعندما ننعم النظر في تلك الآيات نجد أن البيان القرآني في سورة (المؤمنون) عندما أثبت الفلاح لهذه الفئة اختار في التعبير عنها وصف الإيمان فقال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، أما في سورة المعارج عندما استثنى الفئة الناجية من داء الهلع،اختار لها وصف المصلين فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ ، وهذا الوصف - بلا شك - يُعَدُّ أقل من الوصف بالإيمان في سورة (المؤمنون)؛لأنه ليس كل مصلٍ مؤمناً، فقد كان المنافقون يصلون، بل وبنوا مسجداً للصلاة، وأقسموا أنهم ما بنوه إلا لوجه الله، ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [التوبة/١٠٧]، ولكن الله - عز وجل - كشف لنبيه - صلى الله عليه وسلم - حقيقة ما فعلوا، إنهم اتخذوه ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة/١٠٧]، وطلب منه عدم الصلاة فيه: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ ... ﴾ [التوبة/١٠٨]،وذكرت من قبل أن آيات سورة المؤمنون تؤكد على رسوخ وثبات الأوصاف المذكورة في حق المؤمنين، كما أنها ذكرت مباشرة ولم يسبقها الحديث عن شيء آخر، أما آيات سورة المعارج فقد ذكرت في مقابلة المساوئ التي اتصف بها أهل الكفر؛ ولذا جاء التعبير بالمؤمنين في الأول وبالمصلين[2] في الثاني ليتناسب مع السياق في كل منهما.

أما الموطن الثاني من مواطن الاختلاف فهو خاص بفريضة الصلاة، وقد جاء التعبير عنه في سورة (المؤمنون) بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ ،أما في سورة المعارج

---

(١) ملاك التأويل للعلامة أحمد بن إبراهيم الغرناطي٢/٨٧٠، تحقيق / سعيد الفلاح.ط: دار الغرب الإسلامي - بيروت ط: الأولى: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) أشير هنا إلى أنه إذا كان القرآن قد عبر عن المؤمنين في هذا السياق بالصلاة، فإنه في سورة البقرة قد عبر عن الصلاة بالإيمان، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ [البقرة/١٤٣]، والمعنى كما قال المفسرون: وما كان الله ليضيع صلاتكم.حيث إنها نزلت عندما وُجه النبي - صلى الله عليه وسلم - في صلاته إلى الكعبة، قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فنزلت هذه الآية، وسميت الصلاة إيماناً.

فقد أتى التعبير بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ؛ وذلك لأن البيان القرآني وهو يؤكد على إعلاء شأن هؤلاء المفلحين، وأنهم ما استحقوا الفلاح إلا لأنهم ارتقوا في الصفات التي تحلوا بها، والتي رشحتهم للجزاء الذي أُعِدَّ لهم،فإنه يأتي لهم بهذه الصفة لتجمع لهم المدح بفضيلتين وليس بفضيلة واحدة، إنه مدحهم بأداء الصلاة، ثم التحلي بفضيلة الخشوع عموماً وفي الصلاة بصفة خاصة، وكان التركيز على الخشوع؛ لأن أداء الصلاة في حق هؤلاء أمر مفروغ منه، وبالتالي نظر إلى الأمر المهم في الصلاة وهو الخشوع الذي هو روح الصلاة، والذي قيل عنه: صلاة بلا خشوع، جسد بلا روح.أما سياق سورة المعارج فكان التركيز فيه على المداومة على أداء تلك الفريضة وعدم التقصير أو التفريط فيها، لتساعد على علاج الصفات الذميمة.

أما عن الموطن الثالث من مواطن الاختلاف فهو خاص بالجزاء الذي أعد للمتصفين بالصفات المذكورة في السورتين. لقد جاء التعبير عنه في سورة (المؤمنون) بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ، بينما أتى التعبير عنه في سورة المعارج بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ ، والسبب في ذلك أن البيان القرآني يأتي في كل مقام بما يناسبه، ففي سورة (المؤمنون) جاء وصفهم بالإيمان،ثم بين أنهم ارتقوا في أعمالهم، وبالغوا في القيام بها، ومن ثَمَّ كان جزاؤهم أنهم يسكنون في أرقى المنازل، إنهم الوارثون الذين لا يرثون أي مكان، إنما يرثون الفردوس الأعلى، وأنهم في نعيم دائم لا ينقطع أبداً.أما في سورة المعارج فلما كان وصفهم بالمصلين، وهو كما أشرت من قبل وصف في درجة أقل من الوصف بالإيمان، فقد جعل ثوابهم أيضاً في درجة مناسبة لهذا الوصف، إنهم ـ كغيرهم ـ في جنات مكرمون، ولما كانت الجنة درجات يتفاوت فيها أهلها على حسب مكانتهم ومنازلهم، فقد أدخلهم هنا الجنة فقط دون بيان لمكانتهم فيها.

أما عن مواطن **الانفراد** في السورتين، فنجد أن آيات سورة (المؤمنون) قد انفردت بصفة واحدة جاءت فيها، ولم تأت في سورة (المعارج)، هذه الصفة هي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ، وكان مجيئها في هذا السياق مناسباً جداً؛ لأن القرآن الكريم أراد أن يجمع لهم مع التحلي بالصفات الحميدة، التخلي عن الصفات القبيحة، وبذلك يجمع لهم الفعل والترك اللذين يقوم عليهما أمر التكليف، وهو: افعل ولا تفعل.

أما سورة المعارج فقد انفردت بثلاث صفات لم تأت صراحة في سورة (المؤمنون)، والسبب في ذلك أن البيان القرآني راعى المقام في سورة (المعارج) فأطال الحديث عن صفات المصلين فيها؛ لأنها ذكرت لتكون مقابلة لمساوئ أهل الكفر،من هذه الصفات قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ، هذه الصفة اقتضاها السياق، ونادى عليها المقام؛ لأن الكفار يكذبون بمجيء هذا اليوم، وبالتالي اقتضى المقام الإفصاح عن موقف الفريق الآخر من هذا اليوم، فجاء التعبير عن ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ليخبر بأنهم على النقيض من موقف أهل الكفر.

والصفة الثانية من هذه الصفات المنفردة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ ، وهذه الصفة متعلقة أيضاً بالصفة السابقة وهي: يوم الدين وما فيه من نعيم وعذاب، إن البيان القرآني أراد أن يكشف عما يحدث في هذا اليوم من أهوال خصوصاً فأطال الحديث عنه، فتطلب المقام بيان موقف المؤمنين ومدى استعدادهم لهذا اليوم، فجاء التعبير بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ ،ليمدح فريق الإيمان بالخوف من هذا اليوم، والذي يدفعهم إلى الجد في الطاعة، وليشير إلى أنهم يؤثرون الآجلة على العاجلة،وفي الوقت نفسه يُعَرِّض بموقف الكفار من هذا اليوم الذي لا يؤمنون به، وبالتالي لا يخافون مما يكون فيه من أهوال، بل قالوا وعلى فرض مجيئه فسنكون في مأمن من العذاب كما جاء على لسانهم ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء/١٣٨].

وأما الصفة الثالثة والأخيرة من هذه الصفات المنفردة في سورة المعارج، فتتمثل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ ، هذه الصفة تتحدث عن الشهادة، وهي ـ كما أشرتُ من قبل ـ تندرج تحت الأمانة،لكن جاء تخصيصها لتوجيه الاهتمام إليها؛ حيث إن حقوق العباد تتوقف عليها،ثم خصت سورة المعارج "بالإفصاح عنها؛ لأنها السورة الثانية في الترتيب الثابت، فاستوفت وأكدت ما أشير إليه في سورة المؤمنون"[1].وأيد هذا الكلام الإمام الكرماني بقوله:"وزاد في هذه الخصال ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ ؛ لأنه وقع عُقَيب قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ ، وإقامة الشهادة أمانة يؤديها إذا احتاج إليها

(١) ملاك التأويل ٢/ ٨٧٤.

صاحبها لإحياء حق، فهي إذن من جملة الأمانة، وقد ذكرت الأمانة في سورة المؤمنين، وخُصت هذه السورة بزيادة بيانها".[1]

وعن سر انفراد سورة المعارج بهذه الصفات الثلاث يقول ابن جماعة:"لم تذكر الثلاثة ـ يعنى: التصديق بيوم الدين، والإشفاق من العذاب، والقيام بالشهادة ـ في سورة المؤمنين؛ لِماَ تقدم في هذه السورة ـ أي سورة المعارج ـ ذكر النقائص الثلاثة في الإنسان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ناسب ذلك جبر المؤمنين بذكر أوصافهم الثلاثة الجميلة حين استثناهم من عموم الإنسان. وأيضاً لماّ تقدم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، وتحمُّل الشهادة من جملة الأمانة، ناسب ذكر الشهادة بعد الأمانة"[2].

بعد هذا العرض لهذه الأمور أقول: إن البيان القرآني أتى في كل موطن بما يقتضيه مقامه،وما ينادي عليه سياقه، بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يحل لفظ مكان آخر؛ لأن المكان لا يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حِوَلا. فسبحان من أحكم كلامه، وأبدع بيانه!

* * *

(١) البرهان في متشابه القرآن للكرماني ص٣٥٠، تحقيق / أحمد عز الدين عبد الله،ط: دار الوفاء ـ المنصورة ـ القاهرة،ط: الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

(٢) كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة ص٣٦٥،تحقيق د / عبد الجواد خلف. ط: دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر. ط: الأولى: ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

الخاتمة:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

فبعد الانتهاء - بتوفيق الله تعالى - من هذه الرحلة المباركة، والتي عشت فيها في رحاب تلك الآيات الكريمات، أستطيع أن أسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وهي كما يلي:

أولاً: أن أوصاف المؤمنين في القرآن الكريم متعددة، لكنها في هذين الموضعين تُعَدُّ موجزة ودقيقة.

ثانياً: أن الآيات في الموضعين برز فيها الحث والترغيب على التحلي بمكارم الأخلاق، التي لو تمسكت بها أمة الإسلام فإنها ستكون خير أمة أخرجت للناس، ويكفي في فضلها، أن الله عز وجل كما أنزلها على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - أنزلها على خليله إبراهيم عليه السلام.

ثالثاً: أن الأوصاف في سورة (المؤمنون) كان عددها أقل من الأوصاف في سورة (المعارج)، حيث جاءت ستة في (المؤمنون)، وثمانية في (المعارج).

رابعاً: أن الأوصاف في سورة (المؤمنون) جاءت مباشرة دون أن يسبقها شيء، لذا كانت قصيرة، أما في سورة (المعارج) فسبقت بذكر مساوئ الكفار، لذا طال فيها الكلام؛ لأن مقام المدح والذم من المقامات التي يطول فيها حبل الكلام، فلما أطال الحديث في ذم أهل الكفر، قابله إطناب في الثناء على أهل الإيمان.

خامساً: أن الأوصاف في سورة (المؤمنون) مع قلتها، فإن ثوابها أجل وأعظم،أما الأوصاف في سورة (المعارج) مع كثرتها، فإن أجرها أتى مناسباً لها.

سادساً: أن نظم تلك الأعمال الصالحة أكد على مدى أهميتها عموماً، وعلى الصلاة خصوصاً؛ حيث إن هذه الأعمال قد ولدت في أحضانها، وتزينت بها، فختمت بالصلاة كما بدئت بها، وتكررت أربع مرات في الموضعين بالإضافة إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، وفي هذا - إلى جانب علو مكانتها - دلالة عظيمة على أنه ليس هناك فرق بين حق الله وحق عباده، وأن من يقوم بأداء حق الله أولاً، فإنه لاشك سيكون حريصاً أشد الحرص على أداء حقوق خلقه بعد ذلك.

سابعاً:تبين من البحث أن هناك ترابطاً قوياً بين الأوصاف، حيث يأخذ بعضها بحجز بعض، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هناك علاقة شديدة، ومناسبة جلية بين السورتين اللتين وردتا فيهما تلك الآيات، والسورتين اللتين ذكرتا قبلهما، واللتين ذكرتا بعدهما.

ثامناً: أن البيان القرآني اصطفى الكلمات المعبرة، والألفاظ الموحية التي اقتضاها السياق، وتطلبها المقام، والتي أثرتْ المعنى أيَّمَا إثراء.

تاسعاً: أن هذه الأوصاف على قصرها، قد اشتملت على كثير من فنون البلاغة في علومها الثلاثة من: معان، وبيان، وبديع.

عاشراً: لحظ أن الآيات جاءت خالية من أسلوب التشبيه، وذلك لأنها ليس فيها تقريب لأمر بعيد، أو كشف لشيء غامض، وإنما أتت لتعدد أوصافاً محققة لهؤلاء المؤمنين، ولما أراد البيان القرآني أن يقرر جزاءهم في سورة (المؤمنون)، ويقربه إلى الأذهان ساقه في أسلوب الاستعارة الذي هو في الأساس مبني على التشبيه.

وفي الختام، أسأل المولى عز وجل أن يعيننا جميعاً على أن نكون أهلاً لهذه الصفات، وأن يحشرنا في زمرة سكان الفردوس الأعلى، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله أولاً وآخراً،،

* * *

أهم المصادر والمراجع:

يأتي على رأسها: القرآن الكريم.

١ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. تحقيق /محمد أبو الفضل إبراهيم.ط: مكتبة التراث . القاهرة ط: الثالثة: ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

٢. أحكام القرآن / محمد بن عبد الله الأندلسي الشهير بـ (ابن العربي).ط: دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ.

٣ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم /محمد بن محمد العمادي أبو السعود. ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت . بدون.

٤ـ أسرار ترتيب القرآن للسيوطي.تحقيق /عبد القادر أحمد عطا. ط:دار الاعتصام. القاهرة. ط:ا لثانية: ١٣٩٨هـ.١٩٧٨م.

٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن / محمد الأمين الشنقيطي.تحقيق / مكتب البحوث والدراسات. ط:دار الفكر. بيروت.ط: ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.

٦. إعراب القرآن الكريم أ / عبد الله علوان،أ /خالد الخولي. ط: دار الصحابة . طنطا. مصر.ط: ١٤٢٤هـ.

٧ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل / ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر البيضاوي.ط: دار الفكر . بيروت . بدون.

٨ـ البحر المحيط /أبو حيان الأندلسي.تحقيق الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود.والشيخ / على محمد معوض.ط: دار الكتب العلمية . بيروت.ط: الأولى: ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

٩. البرهان في متشابه القرآن الإمام محمود بن حمزة الكرماني. تحقيق / أحمد عز الدين عبد الله خلف الله، ط: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. ط: الأولى:١٤١١هـ. ١٩٩١م.

١٠. البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن كمال الدين بن عبد الكريم الزملكاني. تحقيق د / أحمد مطلوب، د / خديجة الحديثي. ط: مطبعة العاني . بغداد. ط: الأولى: ١٣٩٤هـ. ١٩٧٤م.

١١. بغية الإيضاح / عبد المتعال الصعيدي.ط: مكتبة الآداب . القاهرة . بدون.

١٢. التحرير والتنوير / محمد الطاهر بن عاشور.ط: مؤسسة التاريخ العربي . بيروت.ط: الأولى: ١٤٢٠هـ.

١٣ـ تفسير القرآن العظيم /أبو الفداء إسماعيل بن كثير. تحقيق / سامي محمد سلامة. ط: دار طيبة للنشر والتوزيع . الرياض. ط: الثانية: ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

١٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن السعدي.تحقيق / عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط: مؤسسة الرسالة.ط: الأولى: ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م.

١٥ـ الجامع لأحكام القرآن / أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. تحقيق /سالم مصطفى البدري،ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.ط:الثانية: ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٦ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن / أبو جعفر الطبري.تحقيق /أحمد محمد شاكر.ط: مؤسسة الرسالة.ط: الأولى: ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

١٧. الجدول في إعراب القرآن وصرفه / محمود صافي.ط: مؤسسة الإيمان ـ بيروت.ط: الأولى: ١٤٠٦هـ.

١٨. الجنى الداني في حروف المعاني / الحسن بن قاسم المرادي.تحقيق د / فخر الدين قباوة،أ/ محمد نديم فاضل.ط: دار الآفاق الجديدة ـ بيروت. ط: الثانية:١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٩. جواهر البلاغة /السيد أحمد الهاشمي. ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت.ط: السادسة ـ بدون.

٢٠. الجواهر الحسان في تفسير القرآن / عبد الرحمن الثعالبي.ط: مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

٢١. الحجة في القراءات السبع /ابن خالويه. تحقيق د /عبد العال سالم مكرم.ط: دار الشروق – بيروت ط:الرابعة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢٢. خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى.ط:مكتبة وهبة ـ القاهرة. ط:الثانية:١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٢٣ـ درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز / الخطيب الاسكافي. برواية / ابن أبي الفرج الأردستاني. ط:دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ بدون.

٢٤. الدر المنثور في التفسير بالمأثور / السيوطي.ط: دار الفكر ـ بيروت.ط: ١٩٩٣م.

٢٥. روح البيان / إسماعيل حقي.ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ بدون.

٢٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني /شهاب الدين الآلوسي. ط: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٧ـ رياض الصالحين / الإمام النووي. تحقيق / جماعة من العلماء.ط:المكتب الإسلامي ـ بيروت. ط: الأولى:١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٨ـ زاد المسير في علم التفسير للإمام عبد الرحمن الجوزي.ط: المكتب الإسلامي ـ بيروت،ط: الثالثة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٢٩. السراج المنير / شمس الدين محمد الشربيني. ط: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ بدون.

٣٠. سنن ابن ماجة. تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي.ط: دار الفكر – بيروت ـ بدون.

٣١. سنن الترمذي.تحقيق / أحمد محمد شاكر وآخرون، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت ـ بدون.

٣٢ـ سنن النسائي. تحقيق / عبد الفتاح أبو غدة.ط: مكتب المطبوعات الإسلامية – سورية. ط: الثانية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٣٣. شروح التلخيص. ط: دار البيان العربي. بيروت.ط: الرابعة:١٤١٢هـ.١٩٩٢م.
٣٤. صحيح البخاري.تحقيق د / مصطفى ديب البغا. ط: دار ابن كثير. اليمامة. بيروت.ط: الثالثة: ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.
٣٥. صحيح مسلم.تحقيق /محمد فؤاد عبد الباقي.ط: دار الكتب العلمية. بيروت.ط: الثانية: ١٤٢٤هـ.
٣٦. غرائب القرآن ورغائب الفرقان / الحسن بن محمد النيسابوري.تحقيق الشيخ / زكريا عميران ط:دار الكتب العلمية. بيروت.ط: الأولى:١٤١٦هـ.١٩٩٦م.
٣٧. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لشيخ الإسلام الإمام أبي يحيى زكريا الأنصاري. تحقيق الشيخ / محمد علي الصابوني. ط: دار القرآن الكريم. بيروت.ط: الأولى: ١٤٠٣هـ.١٩٨٣م.
٣٨. فتح القدير(الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) /محمد بن علي الشوكاني.ط: دار الفكر. بيروت. بدون.
٣٩. الفروق اللغوية /أبو هلال العسكري. تحقيق / أبو عمرو عماد زكي الباروي. ط: المكتبة التوفيقية. القاهرة. بدون.
٤٠. في ظلال القرآن /سيد قطب. ط: دار الشروق. القاهرة.ط: السادسة:١٩٨٨م.
٤١. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل /أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري.تحقيق / عبد الرزاق المهدي. ط:دار إحياء التراث العربي. بيروت.ط: الثانية:١٤٢١هـ.٢٠٠١م.
٤٢. لباب التأويل في معاني التنزيل /علاء الدين البغدادي الشهير بالخازن. ط: دار الفكر. بيروت. ط:١٣٩٩هـ .١٩٧٩م.
٤٣. اللباب في علوم الكتاب / أبو حفص عمر بن عادل الدمشقي.تحقيق / الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ /علي محمد معوض،ط: دار الكتب العلمية. بيروت.ط: الأولى ط: ١٤١٩هـ.١٩٩٨م.
٤٤. لسان العرب ط:دار صادر. بيروت.ط: الأولى:١٤٢٣هـ.٢٠٠٢م.
٤٥. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د /فاضل السامرائي. ط:دار عمار. عمان. الأردن ط: الثالثة:١٤٢٣هـ .٢٠٠٣م.
٤٦. المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية د / صالح بن عبد الله الشثري.ط: وزارة الشؤون الإسلامية. السعودية، ط: الأولى: ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.
٤٧. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز /ابن عطية الأندلسي.تحقيق / عبد السلام عبد الشافي محمد.ط: دار الكتب العلمية. بيروت.ط: الأولى: ١٤١٣هـ

٤٨. مدارك التنزيل وحقائق التأويل /أبو البركات النسفي. تحقيق الشيخ / مروان محمد الشعار. ط:دار النفائس. بيروت. ط:١٤٢٦هـ. ٢٠٠٥م.

٤٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل.ط: مؤسسة قرطبة – القاهرة. بدون.

٥٠. معالم التنزيل /أبو محمد الحسين البغوي.تحقيق /محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية ط: دار طيبة للنشر والتوزيع. الرياض.ط: الرابعة:١٤١٧هـ. ١٩٩٧م.

٥١. مفاتيح الغيب / فخر الدين محمد بن عمر الرازي. ط:دار الكتب العلمية. بيروت.ط: الأولى:١٤٢١هـ.

٥٢. المفردات في غريب القرآن / أبو القاسم محمد الراغب الأصفهاني. ط: دار القلم. دمشق. بدون.

٥٣. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل /الإمام أحمد بن إبراهيم الغرناطي. تحقيق / سعيد الفلاح. ط:دار الغرب الإسلامي.ط: الأولى:١٤٠٣هـ.١٩٨٣م.

٥٤. من إعجاز القرآن (نظم القرآن) د / حفني شرف.ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . مصر.ط: ١٣٨٢هـ. ١٩٦٢م.

٥٥. من بلاغة سورة المؤمنون د / عائشة حسين فريد. ط: دار قباء. القاهرة. ط: الأولى: ٢٠٠٠م.

٥٦. من بلاغة القرآن د / أحمد بدوي.ط: دار نهضة مصر. القاهرة. ط:١٩٧٨م.

٥٧. من عطاء نظم القرآن الكريم د / عبد الحميد العيسوي.ط: أبناء وهبة. القاهرة.ط: الأولى:١٤١٠هـ.

٥٨. النبأ العظيم (نظرات جديدة في القرآن). د /محمد عبد الله دراز. ط: دار القلم . الكويت. ط: الرابعة: ١٣٩٧هـ. ١٩٧٧م.

٥٩. النشر في القراءات العشر / ابن الجزري.تحقيق الشيخ / علي محمد الضباع.ط: مكتبة التراث. القاهرة . بدون.

٦٠. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / برهان الدين البقاعي. تحقيق / عبد الرازق غالب المهدي.ط:دار الكتب العلمية. بيروت.ط::١٤١٥هـ.١٩٩٥م.

* * *